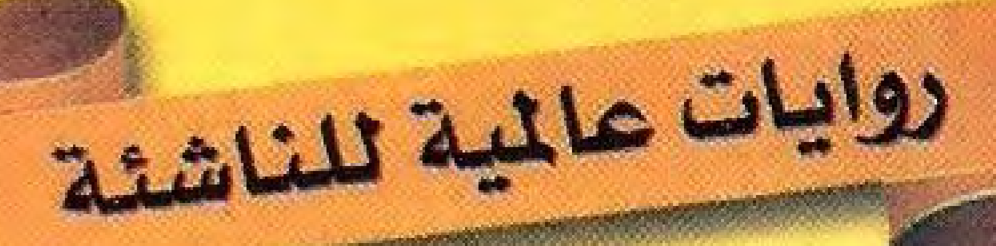


ريمي الصغير

هكتور مالوت

RABIE

روايات عالمية للناشئة

ريمي الصغير

ريمي الصغير

(هكتور مالوت)

1830– 1907

ترجمة

د. محمد نديم خشفة

ذكرى حاج حسين

إشـــراف : محمـــد كمـــــال

إخراج فني : م. نشوان خريط



ريمي الصغير

(الموسيقي الجوال)

الفصل الأول

الطفل دون عائلة

إنني ولد لقيط . وكنت أظن حتى سن الثامنة أن لي أمّاً مثل جميع الأطفال ، لأني حين أبكي كانت امرأة تحتضنني بين ذراعيها وتهدهدني بلطف حتى أتوقف عن البكاء .

كنا نسكن قرية " شافانون " ، وهي إحدى القرى الفقيرة في وسط فرنسا . ولم تكن فقيرة لأن سكانها كسالى بل لأن أرضها قاحلة مملوءة بالصخور .

وأمّا بيتنا فكان يقع في منطقة قريبة من منعطف النهر ، حيث تنتصب أشجار الكستناء والبلوط الوارفة الظلال ، وتمتد حولها المروج الخضراء .

لم أشاهد رجلاً في بيتنا هذا .

على الرغم من أن أمي لم تكن أرملة ، كان زوجها يعمل في نحت أحجار البناء مثل الكثير من الرجال في تلك المنطقة ، وكان عمله في باريس ، ولم يرجع إلى القرية منذ وعيت الدنيا ، وأدركت ما يدور حولي من أمور ، ولكن أخباره تصلنا من حين إلى آخر ، ينقلها إلينا أحد رفاقه العائدين إلى القرية ، فيقول لأمي :

– أيتها الأم باربرن ، إن زوجك على أحسن حال ، وقد طلب مني أن أبلغك بأن عمله ممتاز ، وأرسل إليك هذه النقود ، خذيها وأرجو أن تعديها !

في يوم من أيام تشرين الثاني (نوفمبر) جاء إلى البيت رجل لم أره من قبل ، ووقف أمام السياج وسألني إن كانت الأم باربرن تسكن هنا ، فطلبت منه الدخول ، فدفع باب السياج واجتاز إلى الباحة .

لم أر في حياتي رجلاً ملطخاً بالوحول مثله ، قال الرجل ببساطة :

– أحمل إليك أخباراً من باريس .

ولكنه لم يقل كما اعتاد رفاقه أن يقولوا لها من قبل : " إن زوجك على أحسن حال " .

ولقد شعرت الأم باربرن بالشعور نفسه فشبكت أصابع يديها وقالت بصوت مرتجف : آه يا رب ، لقد أصاب جيروم مكروه !

فقال الرجل وقد أطبق جفنيه :

– نعم يا سيدتي ، إنها الحقيقة ، فقد أصيب في حادث ، ولكن لا تجزعي فإنه لم يمت وهو في المستشفى ، وسوف يعود إليك . ولكنه سيظل معوّقاً طول حياته .

على الرغم من ذلك ، استطاعت الأم باربرن أن تقنعه بالبقاء لتناول العشاء معنا لعلها تعرف منه المزيد من الأخبار . وحكى لها وهو يتناول الحساء أن باربرن قد سقطت عليه صقالة البناء ، وأن متعهد البناء أثبت أن باربرن لا عمل له في هذا المكان . ولذلك فلن يُصرف له أيّ تعويض ، ثم ختم حديثه وهو يجفف بنطاله أمام النار :

– نعم... باربرن قليل الحظ ، لو كان رجل آخر مكانه لحصل على تعويض ضخم ، أما هو فلاحظّ له ، وقد نصحته أن يرفع عليهم دعوى .

عزمت الأم باربرن على السفر من الغد إلى باريس ، ولكنها استشارت القسّ فنصحها بالتأني لتعرف إن كان سفرها مفيداً لزوجها . وقد كتب رسالة إلى قسّ المستشفى الذي يُعالج فيه باربرن ، وقرأ لها جوابه ويرجوها فيه ألا تأتي بل ترسل إليه المصاريف المطلوبة للدعوى التي سيرفعها على متعهد البناء .

ومرّ الزمان ، ومن حين إلى آخر تصل رسالة يطلب فيها النقود

في الرسالة الأخيرة طلب مبلغاً من المال حالاً ، وإذا تعذر الحصول عليه فيجب أن تباع البقرة .

أن تباع البقرة ! ..

إن سكان المدن الذين يرون الأبقار في الريف يظنون أن وجودها يتلاءم مع منظر الطبيعة .. هذا كل شيء .. ولا يعرفون ما تمثله البقرة للفلاح في الريف .

أما بقرتنا نحن فكانت كل شيء . كانت الزبدة التي نضعها في الحساء ، والحليب الذي نمزج به البطاطا . وكنا نعيش ، الأم باربرن وأنا على أحسن حال ، إذ نملك عدداً من الدجاج والأرانب ولا نشتري اللحم أبداً ، وكم كنا نحب بقرتنا " روسيت " ، ومع ذلك يجب أن تُباع .

جاء إلى البيت تاجرٌ فجسّ أعضاء " روسيت " كلها ، ثم قطّب وجهه وقال : إنه لا يستطيع أن يستفيد منها ، فهي عجوز مسنّة شديدة الهزال ، ولا تدر ما يكفي من الحليب . وبعد جدال رضي أن يشتريها ليدخل السرور على قلب الأم باربرن فهي امرأة طيبة ، وحصلنا على مبلغ زهيد من المال أرسلناه إلى باريس .

ولم يعد لدينا حليب ولا قشدة ولا زبدة ، ولا نتناول في الصباح سوى الخبز الجاف ، وفي المساء البطاطا المسلوقة مع الملح . بعد مدّة

حان وقت الاحتفال بـ " ثلاثاء المَرْفع " . في العام الماضي أعدت لي الأم باربرن الفطائر ومازلت أذكرها وأحلم بها منذ شهور .

نعم .. ولكن كي تصنع الفطائر يلزمها الطحين والبيض والحليب خاصة ، وها هي " روسيت " قد ذهبت وذهب معها " ثلاثاء المَرْفع " .. هذا ما كنت أقول لنفسي صباح الثلاثاء . ولكن الأم باربرن قد أعدت لي مفاجأة ، ولم تكن تحب الاستدانة ، ولكنها لم تشأ أن أقضي " ثلاثاء المَرْفع " حزيناً . وحين رجعت إلى البيت في منتصف النهار كانت قد استدانت طاسة حليب من جارةٍ ، وقطعة زبدة من جارةٍ أخرى ، وسكبت في القدر شلالاً رائعاً من الطحين وقالت : اذهب وانظر في خزانة الطعام !

لا أستطيع أن أُعبِّر عن فرحتي الغامرة حين رأيت ثلاث بيضات وبعض الحليب والزبدة ، وثلاث حبات من البطاطا ، وأما الأم باربرن المحبوبة فكانت تنظر إليّ وهي ضاحكة

أعترف بأني حاولت عدة مرات رفع غطاء القدر الموضوعة في رماد الموقد لأرى إن كانت العجينة قد نضجت ، فكانت الأم باربرن تحذرني وهي سعيدة لسعادتي : لا ترفع الغطاء يا ربي العزيز وإلا بردت العجينة .



في المساء طلبت مني أن أجمع بعض الأغصان الصغيرة اليابسة لأوقد بها النار .

أخذت الأم باربرن المقلاة الكبيرة ووضعتها على النار فوق المنصب ذي الأقدام الثلاثة وقالت :

– ناولني الزبدة .

وبطرف السكين غرفت قطعة زبدة رمتها في المقلاة .

بعد ثانية سمعنا صوت هراوة تطرق الباب ، ثم انفتح بعنف ، وسألت الأم باربرن وهي منحنية على المقلاة :

– من هناك ؟

فأجابها صوت أجش :

– آه .. تقيمون احتفالاً هنا ! تفعلون ما يحلو لكم إذن !

وصاحت الأم باربرن وهي تدفع المقلاة في الرماد :

– آه ! يا رب ! أهذا أنت يا جيروم ؟

ثم أمسكت بذراعي ودفعتني نحو الرجل الواقف في إطار الباب وقالت :

– إنه أبوك ..

أبي ! .. واندفعت لمعانقته ولكنه أوقفني بطرف هراوته وسأل بصوت قوي :

– من يكون هذا ؟

قالت الأم باربرن :

– إنه ريمي .

– ريمي بعد كل ما قلته لك ؟ !

فأجابت الأم باربرن بصوت مضطرب :

– نعم ، ولكنك تعلم أن هذا ليس صحيحاً !

فأجاب الرجل :

– تحتفلون بثلاثاء المرفع ؟ ولكني لا أحتاج إلى الفطائر ، أحتاج حساء لذيذاً دسماً ، وأرى أنه ليس عندكم سمن ، فلنصنعه بالبصل ، هيا إلى العمل ..

جذبت الأم باربرن المقلاة من الموقد وانصرفت إلى تحضير الحساء بالبصل ، وكان الرجل قد جلس متثاقلاً : ملامح وجهه مجعدة وعيناه قاسيتان ورأسه يميل إلى الجانب الأيمن . ولعل هذا سببه الحادث الذي أصابه في باريس . وكنت أنظر إليه جزعاً ، ولم أعد أفكر في الفطائر فقد طارت من يدي وكنت أقول لنفسي : " أبي ! أهذا أبي ! " .

ورآني أتأمله فصرخ بي فجأة :

– أنت ! لا تقف كالأبله ، هيا أعدّ المائدة .. تحرك !

فأطعته وأنا أرتجف .

نضج الحساء فجلسنا إلى المائدة ، وكنت خائفاً بحيث لا أستطيع أكل أي شيء .

كان الرجل يخالسني النظر مرة بعد أخرى وهو يشرب الحساء الساخن بضجة مرتفعة وسأل فجأة :

– أهذا كل ما يأكله ؟

أجابت الأم باربرن :

– أوه .. طبعاً هو يأكل بشهية عادةً .

فقال الرجل :

– حسناً ، أمر مؤسف ، وما دام قد شبع فليذهب إلى النوم وفي الحال !

غمزتني الأم باربرن ، فنهضتُ بصمت وذهبت لأنام ، فأضاف صوت الرجل :

– أظنك ستنام حالاً ، وإلا فالويل لك !

ولكنني لم أنم بسرعة ، وما كان بوسعي سوى الاستماع إلى ما يقوله الرجل والأم باربرن ، فقد سألت بصوت قلق :

– ماذا جرى للدعوى ؟ وأين وصلت ؟

– الدعوى ؟ خسرها ولم يشأ القضاة أن يستمعوا إليّ ، وها أنا الآن معوّق ، إنه البؤس ، وزيادة في سوء الحال أعود إلى القرية فأجد هذا الولد ، اشرحي لي !

فأجابته بسرعة :

– لم أستطع إعادته إلى الملجأ ، هذا غير ممكن ، فقد كان مريضاً في ذلك الوقت ، وكان يسعل مثل سعال ابننا نيقولا المسكين قبل وفاته ثم شُفي بعدئذٍ ، ولم يطاوعني قلبي على أخذه إلى المدينة ، فأرضعته من ثديي ، هل فهمت ؟

فسخر منها الرجل :

– يا لها من أسباب ، وكم عمره الآن ؟ ثمانية أعوام ؟ ومع ذلك سيذهب إلى ملجأ اللّقطاء في سن الثامنة عوضاً عن ذهابه في سن الثانية .. هذا كل شيء .

– ولكنه أجمل طفل في البلدة يا جيروم !

– قد يكون أجمل الأطفال ولكنه ليس أقواهم بالتأكيد ، كنت أراقبه وهو يأكل فليس له ذراعان قويان ولا قدمان ثابتتان ، ولا قدرة له على إعالة نفسه .

– وحين يأتي اليوم الذي يطالب به أهله ؟

– دعينا من هذا الكلام ، لو كانت لهم رغبة في المطالبة به لفعلوا

هذا من زمان طويل ، لقد كنت أغبى الأغبياء يوم التقطته من الطريق ، وحسبت أننا سننال مكافأة من أهله حين يستردونه ، ولكنهم لم يسألوا عنه ، يا لهم من أهل ! ولست مضطراً إلى إعادة ابنهم .

فقالت الأم باربرن بلهجة يائسة :

– إذا جاؤوا يستردونه ذات يوم فماذا سنقول لهم ؟

– سنرسلهم إلى الملجأ ليأخذوا ولدهم منه ، حسناً .. انتهى الكلام في هذا الموضوع ، سأخرج لأسلم على أصدقائي .

وسمعت الباب يُفتح ثم يُغلق بشدة ، لقد خرج .. فنهضت بطفرة واحدة وارتميت بين ذراعي الأم باربرن .

سألتني باكية :

– ألم تكن نائماً ؟

– لا .. ماما لقد سمعت كل شيء .

– للأسف كان واجباً علي أن أحكي لك هذا كله منذ زمان طويل ، ولكنه لم يكن ممكناً وخاصة بعد وفاة ابني نيقولا .

واستأنفت كلامها والبكاء يغلبها :

– صحيح أنك لست ولدي ، فقد وجدك جيروم ذات صباح وهو في طريقه إلى العمل في أحد شوارع باريس ! اسمه شارع " بروتويل " في شهر شباط (فبراير) ، لقد سمع بكاء طفل يصدر من

الحديقة ، وحين اقترب جيروم لمح رجلاً يتوارى خلف الأشجار وعلى عتبة المنـــزل رضيع يبكي .. كان هذا الرضيع أنت ، حملك جيروم فازداد بكاؤك ولم يعرف ماذا يفعل بك ، وحين لحق به رفاقه عزموا جميعاً على أن يأخذوك إلى مخفر الشرطة ، فتش ضابط الشرطة ملابسك فعرف أنك من عائلة غنية . قال الضابط :

– من المؤكد أن هذا الرضيع قد خُطف ثم رمي في الطريق ، ولا بد من أخذه إلى ملجأ اللقطاء إذا لم يتكفل به أحد .

وقتها تقدم جيروم وأعلن أنه سيتكفل بك .

لم يكن صعباً عليّ إرضاعك ، فقد كان لديّ رضيع في مثل سنك ، ثم حدث أن توفي صغيري نيقولا بعد ثلاثة أشهر فازداد تعلقي بك . وبعد ثلاثة أعوام كتب لي جيروم طالباً إيداعك في ملجأ اللقطاء ، فلم أفعل ، وها أنت تعرف كل شيء اليوم .

نهضتُ وقد سيطر علي رعب شديد : ماما ، لا أريد الذهاب إلى ملجأ اللقطاء .. أرجوك لا ترسليني إلى الملجأ .

فقالت الأم باربرن : لا يا صغيري ريمي ، لا تبك ، لن تذهب إلى الملجأ ، جيروم ليس شريراً ، وسوف تتأكد من ذلك ، إنما الحزن والخوف من البؤس قد جعلاه قاسي الطبع ، وسوف نعمل أنا وأنت لنعيل أنفسنا ، سترى ، ولن يفرقنا شيء .

الفصل الثاني

فرقة السينيور فيتاليس

في الصباح لم يكلمني باربرن ، ولكنه فتح الباب وقت الظهيرة .

أخذ هراوته وقبعته وأشار إليّ بأن أتبعه . كنت فزعاً وتساءلت هل سيأخذني إلى الملجأ ؟

مضينا نحو القرية البعيدة جداً عن البيت . كنت أتلكأ في السير . لم تكن لي رغبة في مرافقته ، وخطرت لي فكرة الهرب والجري نحو الحقول .

توقف باربرن أمام مطعم ثم دخلناه معاً ، لقد كان مكاناً عجيباً له ستائر ملونة ، لذلك لم أدرك فوراً أنه مطعم .

جلست قرب الموقد وجلس باربرن إلى إحدى الطاولات . تأملت ما حولي . كان هناك في زاوية المكان شيخ ضخم ذو لحية بيضاء يرتدي ثياباً غريبة لم أر في حياتي ثياباً مثلها .

كان هادئاً ساكناً كأنه تمثال قديس خشبي مثل الذي تتزين به كنيستنا الصغيرة ، وبجانبه ثلاثة كلاب تتدفأ ساكنة قرب النار .

حينما كنت أراقب هذا الشيخ بفضول كان باربرن يتكلم مع صاحب المطعم بصوت عال ويقول له : " إنه سوف يأخذني لمقابلة مدير الناحية ليطلب منه معاشاً يدفعه الملجأ لإعالتي " .

همست لنفسي : " أهذا ما انتزعته الأم باربرن منه ؟ " .

لم يكن الأمر مفرحاً ولكنه أفضل من الذهاب إلى الملجأ .

أثناء ذلك اهتم الشيخ الغريب بما يقوله باربرن ، فأشار بيده وهو يقول بلكنة أجنبية :

– هذا الطفل الذي يضايقك ؟

أجابه باربرن :

– إنه هو .

– وهل تظن حقاً أن إدارة الملجأ ستعطيك نقوداً لإعالته ؟

فأجاب باربرن :

– حتماً فأنا لا أستطيع إعالته مجاناً .

ردّ الشيخ بهدوء :

– أظنك مخطئاً وقد فهمت أنك تكفلت بإعالته حسب رغبتك ، فالإدارة ليست مدينة لك بشيء ، ومهما يكن الأمر فكم تتوقع أن تحصل من المال ؟ عشرة فرنكات شهرياً على ما أظن .

هتف باربرن مندهشاً :

– لا .. بل أكثر من ذلك بكثير .

– لن تحصل حتى على عشرة فرنكات ، ربما تحصل على ستة أو سبعة على أكثر تقدير .

فأجاب باربرن هازئاً :

– في هذه الحالة لتأخذه إدارة الملجأ ، وإذا رفضته فسأرميه إلى الطريق ، فلا يوجد قانون يجبرني على إطعام طفل ليس لي كما أظن .

قال الشيخ بهدوء :

– نعم لا يوجد قانون يجبرك ، ولكن القوانين الأخلاقية والإلهية قد تجبرك .. اسمع .. عندي وسيلة أخرى تتخلص فيها من هذا الطفل وتربح بها بعض النقود أيضاً .

حينئذٍ نهض الشيخ من قرب الموقد وجلس إلى الطاولة قبالة باربرن القبيح ، ولا شك أنني كنت قلقاً من نتيجة هذه المحادثة ، ولكن الذي أثار دهشتي شيء ما يتحرك تحت فروة الشيخ على مستوى صدره ، ولعله حيوان ما ، قد يكون كلباً صغيراً !

قال الشيخ وهو يعتدل في جلسته :

– تريد باختصار أن تتخلص من هذا الطفل أو تدفع لك نفقة إطعامه ؟ ! أنا أقترح عليك أن أخلصك منه وآخذه معي ، هل هذا يناسبك ؟

هتف باربرن :

– كيف ؟ .. لن أعطيك الطفل .

– ولِمَ لا ؟ ألست تريد التخلص منه ؟

– ولكنه قوي ، طفل رائع قادر على العمل وكسب المال ، انظر إلى قدميه وذراعيه .

فأجابه الشيخ بحدة :

– هيا .. هيا .. لو كان الطفل كما تقول لاحتفظت به .

صرخ باربرن :

– ولكن تأمله جيداً .

ثم التفت إليّ وهتف :

– تعال إلى هنا .

اقتربت منهما وأنا أرتجف ، قال لي الشيخ باسماً :

– لا تخف يا بني .

قال باربرن وهو يرفع بيده طرف البنطال عن بطّة ساقي :

– انظر إليه إنه قوي كمصارع .

اعتقل لساني من الخوف ، فهذان الرجلان يجسّانني ويتحدثان عني كما كان تاجر الحيوانات يجسّ بقرتنا البائسة " روسيت " منذ شهور . وحدثت الأمور كالتالي ، بعد جدال طويل اتفقا على أن يأخذني الشيخ معه ويدفع لباربرن عشرين فرنكاً سنوياً ، ويعطيه مبلغ سنتين سلفاً . باختصار لقد تم بيعي كما بيعت " روسيت " البائسة ..

لم أجرؤ على البكاء بصوت مرتفع ، ولكنني انتحبت في أعماقي . فجأة قال باربرن :

– ولكن أي نوع من الخدمة سيؤديها هذا الطفل لك ؟ لا أظنك ستأخذه على سبيل الإحسان ؟

– المطلوب منه أن يرقص ويقفز في الهواء ، ثم يمشي ويكرر هذا عدة مرات في اليوم ، باختصار سيكون أحد أفراد " فرقة السينيور فيتاليس " .

– ما هذه الفرقة ؟

– اعلم أولاً أنني السينيور فيتاليس ، وأما بقية أفراد الفرقة فأقدمهم في الحال لأنك متشوق كما يبدو للتعرف عليهم .

قال هذا ثم فتح فروته وجذب منها حيواناً غريباً حمله بيده اليسرى وضمه إلى صدره . كان هو ذلك الحيوان الذي تحرك عدة مرات تحت

الفروة ، لم يكن كلباً صغيراً كما ظننت ، وحين رأيته أصابني الذهول . لم أر في حياتي حيواناً مثله . كان يرتدي سترة حمراء تزينها شرائط مذهبة ، أما ذراعاه وساقاه فكانت عارية يغطيها الوبر . لم تكن له مخالب ، وله عينان سوداوان نفاذتان تلمعان كالمرآة .

قال باربرن وهو يضحك :

– يا له من قرد خبيث .

– هذا أول أفراد فرقتي السيد " طيب القلب " ، هيا يا طيب القلب هيا يا صديقي .. تفضل بتحية للأصدقاء .



أطاعه القرد الصغير وهو يضع يده على شفتيه ورمى إلينا بقبلاته .

أستأنف فيتاليس وهو يشير بيده إلى الكلب الأبيض :

– هذا السينيور " كابي " الذي سيكون له الشرف بتقديم أصدقائه إلى الجماعة المحترمة .

وثب الكلب واقفاً على قائمتيه الخلفيتين ، وصالبَ قائمتيه الأماميتين على صدره ، وحيا سيّده بانحناءة منخفضة حتى لامست الأرض قبعة الشرطي التي على رأسه ، ثم التفت إلى الكلبين الآخرين وأمرهما بحركة من قائمته أن يتقدما ، فأطاعاه حالاً .

قال فيتاليس :

– كابي هو زعيم كلابي واسمه اختصار كلمة " كابتن " ، ولأنه أذكى الكلاب فهو ينقل إليها أوامري ، وهذا الكلب الأنيق حقاً ، الكلب ذو الفرو الأسود هو السينيور " زبرينو " ، أما هذه الإنكليزية الفتية الرومانسية فهي السينيورة " دولسه " ، واسمها ينطبق عليها لأن معناه لطيفة وهي لطيفة فعلاً ، وهؤلاء الشباب الرائعون هم مصدر رزقي ، وهو رزق يزيد أو ينقص حسب مصادفات الحياة وتقادير الحظ .

– هيا يا كابي إلى العمل ..

اقترب كابي من سيده وكشف بفمه طرف سترة الفرو ، وأدخل رأسه في جيب فيتاليس وجذب منه بأسنانه ساعة كبيرة ، نظر إليها ثم نبح مرتين بصوت مرتفع وثلاث نبحات بصوت ضعيف .

كانت الساعة فعلاً الثانية وثلاثة أرباع !

قال فيتاليس :

– شكراً يا كابي تفضل بدعوة السينيورة " دولسه " إلى لعبة " نط الحبل" .

سرعان ما بحث الكلب بجيب سيده وجذب حبلاً ، وقف زربينو قبالته وأمسك كل منهما طرف الحبل بأسنانه ، وبدأا بتدويره بتناسق عجيب .

وحين انتظمت حركته قفزت " دولسه " إلى الوسط وصارت تنط فوق الحبل بحركات رشيقة ، وقد ثبتت نظرات عينيها السوداوين على فيتاليس .

بعد برهة قال فيتاليس :

– ألا ترى أن تلاميذي أذكياء ، ولذلك سأضمّ هذا الطفل إلى فرقتي ، إنه يمثل دور الحيوان الغبي ، وبذلك يزيد إعجاب الناس بذكاء بقية أفراد الفرقة .

ضحك باربرن ضحكة صاخبة وقال :

– آه .. سيقوم بدور الحيوان .

فقال فيتاليس :

– ولكن يلزمه الكثير من الذكاء ، وبعد عدة تمارين سينفذ هذا الطفل ما أريد .

تصاعدت الدموع إلى عيني مرة أخرى ، ولاحظ فيتاليس ذلك فلمس خدي بلطف وقال :

– هذا حسن ، لقد فهم الطفل لأنه لا يشكو ، وفي رأسه الصغير قدر كافٍ من الذكاء ، وغداً...

فهتفت به :

– آه يا سيدي اتركني مع ماما باربرن أرجوك ..

لكن في هذه اللحظة نبح " كابي " نباحاً عالياً ، واندفع نحو الطاولة التي يجلس عليها " طيب القلب " ؟

وكان قد استغل غفلة الآخرين عنه فشرب كأس سيده .

فقال فيتاليس بقسوة :

– يا طيب القلب ، أنت شره وسارق ! تفضل بتنفيذ العقوبة ، وأدر وجهك قبالة الحائط ، زربينو راقبه وإذا تحرك لا تتردد في معاقبته ، أما أنت يا كابي فإنك خادم مطيع ، مد لي يدك لأصافحها .

بعد قليل رجعنا إلى البيت وهددني باربرن بالضرب الشديد إذا نطقت بكلمة عن الشيخ فيتاليس والصفقة التي عقدها معه ، وكانت القسوة ظاهرة عليه بحيث عزمت على ألا أبوح بشيء ، وكم تمنيت لو أفضيت للأم باربرن بما يشغلني حين تسنح لي الفرصة . ولكن باربرن ظل طول الوقت بجانب زوجته يراقبني من بعيد .. وفقدت الأمل .

كان في حديقتي التي أعتز بها أنواع كثيرة من الأعشاب ، وترقبت بحيرة ظهور براعمها التي ينبت بعضها تلو الآخر ، بحيث تظل حديقتي مزهرة على مدار السنة .

ولكن النبتة التي كنت أحبها أكثر من سواها نوع من الجذور غير المعروفة وهبتها لي إحدى الجارات . كنت أريد أن أفاجئ بها الأم باربرن وهي نبتة " القلقاس " وطالما حلمت شهوراً بهذه النبتة ، تخيلتها تنمو وتزهر وتكبر جذورها ، وحين تنضج أحفر عنها التراب وأنزعها من الأرض ، ثم أطبخها وأقدمها إلى الأم باربرن مفاجأة مذهلة .

فماذا سيحدث لنبتة القلقاس ؟ لن أفاجئ بها الأم باربرن أبداً .

في الصباح وأنا أسقي جذور القلقاس أفزعني صوت باربرن الذي كان يناديني بإلحاح ، كانت الأم باربرن قد ذهبت إلى القرية قبل ساعة .

وبفزع شديد رأيت أمام الباب " فيتاليس " الشيخ ومعه كلابه وقرده فوق كتفه .

نظر فيتاليس إلى صرة القماش المعقودة الأطراف التي أعطاها له باربرن ، وقلب شفتيه ولم يقل شيئاً ، ثم التفت إلي وقال :

– هيا يا ريمي ، احمل صرتك ولنمض .

فانفجرت بالبكاء .

قال فيتاليس بصوت حنون :

– هيا يا ولدي ، لن تكون تعيساً معي ، أعدك بذلك ، فلنمشِ .

صرخ باربرن بلهجة ماكرة وهو واقف أمام عتبة الباب :

– رحلة سعيدة .

بعد ساعة من السير التفت من أعلى الهضبة فرأيت بيتنا الصغير وحديقتنا والزاوية الصغيرة للمسكبة حيث تنمو براعم القلقاس التي زرعتها ، ورأيت خاصة طيف امرأة تضع منديلاً أبيض على رأسها .

إنها الأم باربرن تجري هنا وهناك ، تدخل وتخرج كالمجنونة في البيت الخاوي والحظيرة الخالية في المخزن الفارغ ، وحسبت أني أسمع صوت ندائها ، ثم أمسك فيتاليس بمعصمي واستأنفنا المسير .

لم أعرف في حياتي مثل ذلك اليأس الذي انتابني .

الفصل الثالث

في الطريق

ليس صحيحاً أن من يشتري طفلاً بمبلغ أربعين فرنكاً يكون شريراً ، فلم يكن فيتاليس غولاً اشتراني ليلتهمني .

مشينا حوالي ربع ساعة ، وبعد أن اختفى البيت وراء الهضبة أفلت معصمي من قبضة يده الكبيرة ثم قال :

– هيا يا ولدي .. أنت حزين وأنا أفهمك ولا أريدك ألا تحزن لأن حزنك دليل على أن لك قلباً رقيقاً ، ابك إذا شئت ، ولكن لا تظن أنني آخذك معي لأسبب لك التعاسة ، على العكس لولاي لكنت الآن في ملجأ اللقطاء . كانت أمك عطوفاً عليك ، ولكن يجب أن تفهم أن أباك بالتبني رجل عاجز . وستكون عبئاً ثقيلاً عليهما . سترى يا ولدي أن ما كل ما يتمناه المرء في الحياة يدركه .

هذه أول مرة أسافر فيها ، وحين كنت أتخيل السفر ، تخيلته بطريقة مختلفة . هذه أول مرة أيضاً أقطع فيها كل هذه المسافات دون راحة ماشياً وراء سيدي الذي يسير بخطوات سريعة ثابتة .

ولاحظ بعد قليل أنني لا أستطيع ملاحقة خطواته فقال لي :

– إن قبقابك هو الذي يتعب قدميك ، وحين نصل إلى " أوسل " سأشتري لك حذاءً .

حذاء ! .. لي ! .. أنا الذي لبست القبقاب طول حياتي !

فسألته بنفاد صبر :

– وهل أوسل بعيدة ؟

فضحك فيتاليس :

– ها .. ها .. هذا كلام يصدر من القلب ، وأنت تتمنى أن يكون لك حذاء يا ولدي ؟ حسناً سأشتري لك حذاءً جميلاً تزين نعله المسامير .

وسأشتري لك بنطالاً من المخمل وسترة وقبعة ، وآمل أن تكفكف هذه الأشياء دموعك وتهبك الشجاعة للوصول إلي أوسل ، لأنه بقي لنا خمسة وعشرون كيلو متراً للوصول إلى أوسل .

ثم انهمرت الأمطار . كان فيتاليس محمياً بفروته التي اندس فيها " طيب القلب " منذ أول قطرة ، بعد برهة كنت مبللاً وكذلك الكلاب

الثلاثة . هذه الكلاب كانت تنفض عنها المطر كل حين ، أما أنا فلا أستطيع فعل شيء ..

سألني معلمي :

– هل يصيبك الزكام بسرعة ؟

– لا أدري .. لم أصب بالزكام أبداً .

– حسن جداً .. أنت قوي إذن ، ولكن لا تعرض نفسك للزكام ، سنحاول أن نجد ملجأ هذه الليلة ، سنمضي إلى تلك القرية هناك لعلنا نجد مكاناً ننام فيه .

لسوء الحظ أساء أهل تلك القرية استقبالنا ، فكانوا يغلقون أبوابهم في وجوهنا وهم يقولون : " لا سكن لدينا " وأخيراً وصلنا إلى آخر القرية فسمح لنا شيخ هرم أن نقضي الليلة في الزريبة ، ولكنه طلب من فيتاليس أن يعطيه علبة الكبريت التي يحملها معه على أن يردها له في الصباح .

دخلنا الزريبة . لم تكن دافئة ولكنها نظيفة ، فارتميت على التبن وأسناني تصطك من البرد .

فكّ فيتاليس كيس البحار الذي يحمله على ظهره ثم قال :

– ليس عندي ملابس كثيرة ، ولكن خذ هذا القميص الجاف لتشعر بالدفء ، وإذا غطيت جسمك بالتبن والعشب اليابس تنام براحة واطمئنان .

بعدئذ عمد إلى توزيع المخصصات الغذائية ، ورأيت النظام الذي يحرص الشيخ على أن يسود فرقته .

وأذكر أننا حينما كنا نمر بالقرية صباحاً اختفى " زربينو " داخل أحد المنازل ثم خرج بعد لحظة وفي فمه رغيف خبز .

لم يصرخ به فيتاليس ولم يغضب ولكنه قال بلهجة حازمة :

– إلى المساء يا زربينو !

نسيت هذه السرقة حتى أخرج فيتاليس من كيسه قطعة خبز كبيرة وقال :

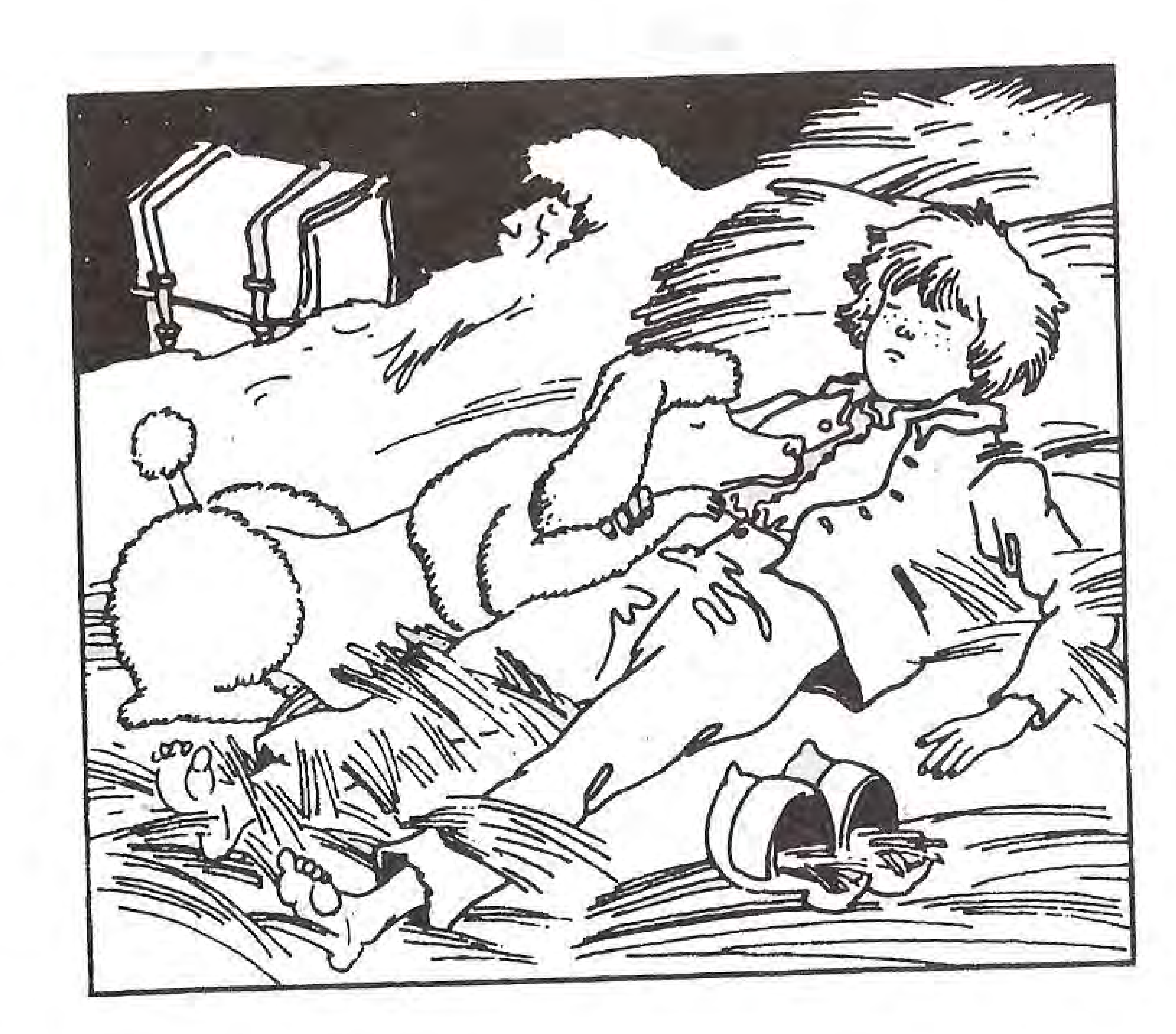
– ليتقدم السارق ، وليذهب إلى الزاوية فلا طعام له هذا المساء .

أثناء ذلك قطع فيتاليس الرغيف قطعاً عديدة ، أعطاني قطعة واحتفظ لنفسه بأخرى ، ثم وزع الباقي بالتساوي على الحيوانات الثلاثة .

كنت أقضم الخبز اليابس وأنا جالس على التبن والحزن يملأ قلبي ، لم أذق طعم النوم على الرغم من تعبي الشديد ، هل هذا هو الترحال ؟

أن أسير دون حلم تحت المطر ؟ أرتجف من البرد وأتعشى قطعة خبز وأنا مندسّ في كومة التبن ؟

وكادت تطفر دموعي حين شعرت فجأة بالفرو الأشعث لكابي تحت يدي ، فقد اقترب مني بهدوء وتشممني بعناية ، ثم تمدد بجانبي وجعل يلعق يدي بحنان ، وحين غفوت أخيراً كانت يدي تمسك قائمته ، وتبددت كل أحزاني فقد وجدت صديقاً لي .



الفصل الرابع

بداياتي

استأنفنا المسير من صباح الغد الباكر . وقد توقفت الأمطار وأصبح الجو جميلاً .

استعدت بعض الشجاعة بفضل كابي الذي يتبختر أمامنا على الطريق ثم يأتي إليّ من وقت إلى آخر ، وينبح ليعبر لي عن فرحه .

والحقيقة أن البيت الوحيد الذي أحببت رؤيته فعلاً في أوسل هو حانوت بائع الأحذية .

الذكرى الوحيدة التي احتفظت بها عن مدينة أوسل هي ذكرى حفرة في منـــزل قديم وواد منخفض تتدلى بقربه ملابس عتيقة وكتافيات فضية صدئة وسلاسل ملأى بمفاتيح قديمة ومصابيح النحاس معلقة بخطافات . وينبغي النـــزول ثلاث درجات للـ... هذا الحانوت المعتم الرطب الذي لم تدخله الشمس مذ ... بعيده .

قلت في نفسي : " كيف يباع شيء ... كالأحذية في مغارة كهذه ؟ " ولكنْ هذه هي الحقيقة ، فالحانوت تباع فيه الملابس

المستعملة . كان فيتاليس يعرف ما يفعله وهو يدخل حانوت هذا الرجل . بعد دقائق كنت أحس بسعادة لا توصف وأنا ألبس في قدمي حذاءً فاخراً ذا مسامير أثقل مرتين من قبقابي الصغير .

ووصل كرم معلمي إلى أقصى مدى ، فقد اشترى لي سترة من المخمل الأزرق وبنطالاً من الصوف وقبعة من اللباد ، أي كل ما وعدني به .

حين رجعنا إلى الفندق أخرج من جعبته مقصاً وقص ساقي البنطال حتى الركبة .

نظرت إليه مذعوراً فشرح لي الأمر قائلاً :

– هذا لئلا تكون مثل بقية الناس ، فنحن في فرنسا ، لذلك سألبسك على الطريقة الإيطالية ، فإذا ذهبنا إلى إيطاليا – وهذا الأمر ممكن الحصول – فسوف ألبسك على الطريقة الفرنسية .

ودفعته حيرتي إلى الضحك :

– يجب أن تفهم شيئاً واحداً يا ولدي من نحن ؟ إننا فنانون أليس كذلك ؟ فهل تظن أننا ندهش الناس إذا لبسنا مثلهم ؟ فاعلم أنه في الحياة لا يؤثر في الناس سوى المظهر الخارجي ، هذا أمر مؤسف ولكنه حقيقة .

كنت أرتدي جرابات من الصوف تلتف حولها أشرطة حمراء معقودة من الأمام وحزاماً عريضاً من الصوف ، وتتدلى من قبعتي أزهار مصنوعة من شرّابات صوفية .

ولا أدري ما رأي الأطفال الآخرين في هذه البذلة الغريبة ، أما أنا فقد كنت مفتوناً بها . وكانت تحيات الإعجاب التي يبديها صديقي " كابي " وهو يقفز على ركبتي بحماسة تنفذ مباشرة إلى قلبي . وتناقصت فرحتي وأنا أرى القرد الصغير " طيب القلب " لا يكف عن الاستهزاء بي مقلداً حركاتي مبالغاً في تضخيمها ، فإذا نظرت إلى المرآة انقلب إلى الوراء وهو يطلق قهقهات تعبر عن الغرور ، ويتأرجح على قدم ويرفع الأخرى ويداه فوق رأسه .

أعترف أن هذه السخرية تزعجني .

بعد أن تفحص فيتاليس بذلتي بعين ناقدة قال :

– حسناً .. والآن هيا إلى العمل ، سنبدأ غداً وهو يوم السوق .

ولم أفهم معنى كلمة " سنبدأ " فشرحها لي فيتاليس قائلاً :

– إن معناه الظهور لأول مرة على المسرح لتمثل دوراً .

ولاحظ أنني لم أفهم جيداً فاسترسل قائلاً :

– سيكون لك دور تمثله في استعراض الغد ، فأنا حين أخذتك معي لترافقني بدلاً من الذهاب إلى الملجأ ، قلت لباربرن إنك ستساعدني

بل ذلك ، فأنا لست غنياً كما ترى ، لذلك ستشارك في الاستعراض ، وعلينا أن نتدرب على دَوْرك معاً .

فأجبته بعناد :

– ولكني لم أفعل هذا طوال حياتي .

– وكابي هل تظنه ولِدَ ممثلاً ؟ و" طيب القلب " ؟ لقد تدربا وقتاً طويلاً حتى تعلم أحدهما القفز على الحبل والثاني السير على قدميه الخلفيتين ، هيا لنبدأ العمل ..

كنت أظن حتى الآن أن العمل معناه حراثة الأراضي وحلب الأبقار وتقطيع الحطب ، لكني اليوم تعلمت أن في الدنيا أعمالاً أخرى كثيرة .

تابع فيتاليس قائلاً :

– المسرحية التي سنقدمها تدعى " خادم السيد طيب القلب " ، وهذا موضوعها ، يوجد لدى السيد " طيب القلب " خادم مطيع له اسمه " كابي " ولكن قد تقدمت به السن ، وينبغي للسيد أن يكون له خادم آخر أصغر سناً ، وتكفل كابي بالبحث عمن يخلفه ، ولكن بدلاً من أن يأتي بكلب آخر قدَّم إلى سيده فتى اسمه ريمي .

– ريمي مثلي ؟

– لا .. ليس مثلك بل أنت بذاتك تأتي من قريتك مباشرة لخدمة طيب القلب .

فقلت منــزعجاً :

– ولكن هذا ليس مسلياً .

– وماذا يهمك إذا كان هذا مسرحاً ؟ هذا لكي نضحك ، ومع ذلك لنحاول . تخيل أنك تشتغل لدى أحد السادة ولا تعرف آداب ترتيب المائدة ، ها هي الطاولة التي سنستخدمها في التمثيل وهذه اللوازم .. حاول ..

تقدمت نحو الطاولة وأنا أتساءل عما يجب أن أفعله . نظرت إلى الأشياء المتراكمة بحيرة ، بقيت لحظة دون حراك مفتوح الفم متدلي الذراعين ، ولا أعرف ماذا أفعل ومن أين أبدأ .

هتف معلمي وهو يصفق :

– برافو .. برافو .. الولد الذي كان قبلك يتظاهر بالغباء وكأنه يقول إنني أتصنع البلاهة ، ولم يكن ناجحاً في تظاهره ، أما أنت فعلى العكس ، لا تقول شيئاً وتظهر عليك البلاهة حقاً ،وهذا ما يجب أن تفعله .

لم تكن المسرحية التي نتدرب عليها طويلة . مدتها عشرون دقيقة على الأكثر ، ولكن فيتاليس أجبرنا على إعادتها ثلاث ساعات ، كان

يدقق في كل حركة لأن الكلبين والقرد لم يمثلوها منذ زمن طويل ، وقد نسوا بعض المقاطع منها . هنا أدركت كم يملك معلمي من الحنان والصبر .

لدينا في القرية تُدفع الحيوانات إلى الطاعة بالركل والصراخ . العكس هنا ، فعلى الرغم من أن " طيب القلب " يخطئ غالباً ويخطئ متعمداً أحياناً كما تصورت ، فلم يرفع فيتاليس صوته ولم تتملكه سورة الغضب .

وحين أفضيت إليه بذلك قال لي :

– إني أحصل على ما أريد بالمساعدة ولا شك أن " طيب القلب " أذكى من الكلبين ، ولكنه يفتقد الصبر والرهافة ، وهو يتعلم بسرعة وينسى في الحال ، ولا يفعل ما يطلب منه راضياً ، ولذلك لا أغضب منه ، وإذا استغربت ذلك فهذا لأنك عشت دوماً مع الفلاحين الذين لا يخاطبون الحيوانات إلا وهراواهم مرفوعة فوق رؤوسها .

قلت له :

– لا .. ما عدا الأم باربرن فقد كانت رفيقة ببقرتنا " روسيت " قبل أن نضطر لبيعها .

– هذا يعطيني فكرة جيدة عنها ، وكانت على حق ، تعلّم أننا نأخذ بالمسايرة أكثر مما نأخذه بالخوف .

لا بد لي من الاعتراف بأن إقبالي على التمثيل للمرة الأولى أمام الجمهور قد جعلني أسهر حتى ساعة متأخرة من الليل ، وأن قلبي كان يخفق بقوة حينما غادرنا الفندق صباح الغد للذهاب إلى ساحة السوق .

افتتح فيتاليس المسيرة مرفوع الرأس ولحيته الطويلة البيضاء مكدَّسة على صدره ، يضبط خطواته على لحن " فالس " يعزفه بمزمار معدني لامع ويأتي وراءه كابي وعلى رأسه قبعة رجل الشرطة حاملاً على ظهره " طيب القلب " بملابس حمراء من الجيش الإنكليزي عليها أوسمة مذهبة ، وعلى رأسه قرن مزين بالريش ، ووراءه على مسافة محسوبة يسير على نفس الخط زربينو و" دولسه " وأختتم أنا هذه المسيرة التي كانت طويلة ، لأن فيتاليس ترك بيننا فراغات أحسنَ تقديرها .

ويفعل المزمار بصوته المرتفع الأعاجيب ، فقد تدافع الناس على عتبات البيوت ليروا مسيرتنا ، وأُزيحت الستائر عن النوافذ .



في الطريق سارت وراءنا جماعة من الأولاد ، وحين وصلنا كان وراءنا موكب حقيقي . نصب فيتاليس قاعة العرض ، فربط حبلاً طويلاً إلى أربع أشجار ، بحيث صنع مستطيلاً كنّا في وسطه .

الجزء الأول من العرض هو عدة ألعاب بهلوانية يقوم بها الكلاب ، ولكنني لم أشاهدها ، فقد كنت مشغولاً بحفظ دوري وإعادته ، وقد انتابني فزع شديد ، كل ما أذكره أن فيتاليس قد استبدل بالمزمار " كمنجة " وكان عزفه عليها لا يقل جودة عن المزمار .

انتهى العرض الأول فأمسك " كابي " طاساً بفمه ودار بها على " جماعة المحترمين " ، وقد عجبت لطريقته في تأدية دوره ، إذ يبحث بين زحام المتفرجين عن أولئك الذين لا يدفعون إليه الدراهم ، فيقف أمامهم والطاس بين أسنانه وقد بدا عليه الصبر والتساؤل ، فيضحك المتفرجون ويمازحون جارهم البخيل ، وما يزالون حتى يضع يده في جيبه .

انتهى وقت تحصيل الدراهم للأسف .. أقول : " للأسف " ، لأنه حان دوري للدخول مع " طيب القلب " إلى المسرح . كنت فزعاً أشد الفزع . فأعلن فيتاليس عن دخولي بحركات واسعة من يديه :

– سيداتي .. سادتي .. استعراضنا مستمر ، هنا مسرحية رائعة عنوانها " خادم السيد طيب القلب " ، وإنّ رجلاً مثلي لن يتنازل لكي يمدح مسرحياته وممثليه ، ولا أقول لكم سوى شيء واحد ، انظروا واسمعوا واستعدوا للتصفيق .

لقد لاقى العرض نجاحاً هائلاً ، وارتفع التصفيق من كل ناحية ، وبعد عودتنا إلى الفندق هنأني فيتاليس على بلاهتي ، وكنت قد أتقنت التمثيل حتى إنني تظاهرت بالفخر لهذه التهاني الغريبة .

الفصل الخامس

بدأت تعلم القراءة

بعد ثلاثة أيام استأنفنا مسيرتنا .

سألت معلمي : أين سنمضي ؟

فأجابني بهدوء وهو يتأملني :

– هل تعرف المنطقة ؟

– لا .

– ولماذا تسألني إذاً ؟

– لكي أعرف فقط .

نظر إليّ فيتاليس طويلاً وهو يفكر ، ثم قال لي :

– قل لي هل تعرف القراءة ؟

– لا .

– وهل تعرف ما هو الكتاب ؟

فقلت بكل اعتزاز : آه طبعاً ، لقد رأيت بعض الكتب في الكنيسة ، تلك الكتب التي يحملها الناس أثناء الصلاة ويتلون منها الصلوات .

ثم سألت فيتاليس بعد لحظة من التفكير : هل تعلّم القراءة شيء صعب ؟

فأجاب :

– إذا كنت بليد الذهن أو ضعيف الرغبة فهو شيء صعب ، هل أنت بليد الذهن ؟

– لا أعرف ، ولكنك إذا أردت تعليمي فإني شديد الرغبة .

– سنرى ، ما يزال أمامنا متسع من الوقت .

في الأيام التالية اخترع فيتاليس كتاباً عجيباً ، فقد قطّع مربعات من الخشب وكتب عليها حروف الأبجدية ، وأجبرني على حفظها غيباً ، فكانت جيوبي مملوءة بهذه الحروف ، ولم يمر الوقت طويلاً حتى تعلمتها ، وحين تعلمت الحروف مجموعة بعضها إلى بعض استغرق الأمر وقتاً طويلاً ، وانتابني اليأس في بعض الأوقات وندمت على تعلمي القراءة ، ولكن المنافسة دفعتني إلى تعلمها لأن فيتاليس أراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد فيعلم معي الكلب " كابي " .

كان " كابي " يتقدم علي في القراءة ، ثم نفدت قدرته بعد مدة ، أما أنا فثابرت .

قال لي فيتاليس ذات يوم :

– لم يعد الكتاب يدخل الخوف على نفسك ، فهل تريد أن تتعلم قراءة الموسيقا ؟

– إذا تعلمت قراءة الموسيقا هل أستطيع الغناء مثلك ؟

فسألني :

– هل تحب غنائي ؟

– نعم أحبه كثيراً ولا أعرف السبب ، ولكنك حين تغني أحس بالحزن ، فاللحن العذب يذكرني بالأم باربرن ويدفعني إلى الجري والقفز في الهواء تعبيراً عن فرحي ، على الرغم من أني لا أفهم الكلمات ، فهي بالإيطالية ، هل أقول كلاماً سخيفاً ؟

في صباح الغد بدأ بتعليمي الموسيقا ، وقد استمر هذا التعليم مدة طويلة ، وغالباً ما كان فيتاليس يفقد صبره ويصرخ بي :

– حين أعلّم الحيوانات أتمالك نفسي لأني أعرف أنها حيوانات ، أما أنت فستكون سبب موتي .

ذات يوم استطعت أداء أحد الألحان جيداً ، فربت فيتاليس على خدي وقال لي : إنك تلميذ نجيب .

وتعلمت أشياء كثيرة من الترحال ومن النظر فيما حولي ، وأصبحت أقوى من كثرة التمارين .

بدأت أتساءل بعمق عن معلمي هذا ما أصله ؟ ومن يكون ؟ وكيف تعلم كل هذه الأشياء ؟ وكيف تعرف على كل هؤلاء الناس ؟

ذات يوم ونحن نجتاز منـــزلاً فقيراً في قرية تدعى " باستيد – مورا " روى لي أن هذا المكان قد ولد فيه رجل يدعى " يواكيم – مورا " ملك نابولي في إيطاليا ، وحكى لي بالتفصيل حياته حتى سألته :

– كأنك كنت تعرفه ؟

– نعم ، لقد عرفته .

سألت بسذاجة : حينما كان سائساً ؟

فأجاب ضاحكاً : لا .. بل حين كان ملكاً ، وخاطبته مرات عديدة .

ورأى دهشتي فضحك : هذه أمور عجيبة كلها .

وصلنا في نهاية المطاف إلى " بوردو " ، وهي مدينة واسعة أكبر مدينة رأيتها في حياتي ، وقد أفزعتني في بادئ الأمر ، وبقينا مدة طويلة فيها لأنها عامرة بالسكان ، وحين ننتقل من حارة إلى حارة أخرى يتبدل جمهورنا ، وأخيراً غادرنا " بوردو " إلى مدينة " بو " .

الفصل السادس

أمام العدالة

في نهاية الشتاء غادر الإنكليز مدينة " بو " ، وعادوا إلى بلادهم ، ولم يبق عندنا جمهور فاستأنفنا المسير .

لقد زاد ثقل ما أحمله الآن عما قبل ، إذ أحمل على ظهري قيثاراً علمني فيتاليس العزف عليه ، وأتقنت عزف بعض الألحان وخاصة قطعة موسيقية من نوع " الكونزونيتا " النابولية ، دربني عليها فيتاليس ولاقت استحساناً عظيماً .

انتقلنا من (بو) إلى (تولوز) ، وهي مدينة أكبر منها . وبحثنا كالعادة عن أفضل الأماكن لتقديم عروضنا . كان كثير من الناس يترددون على " حديقة النباتات " التي تتفرع عنها شوارع فسيحة .

وفي أحد هذه الشوارع حططنا الرحال ، فأقبل علينا جمهور واسع في الحال ، ولسوء الحظ فإن الشرطي المكلف بحراسة المكان لم يرض عن إقامتنا فيه ، ولا أعرف السبب ، فعزم على طردنا منه .

كان من واجب فيتاليس أن ينفذ طلبه دون اعتراض ، وهذا أفضل حل لأمثالنا ، ولكنه لم يشأ أن يمتثل له في ذلك اليوم ، ولكي يدافع عن نفسه عمد إلى نوع من اللياقة الساخرة والاستهزاء الذي عُرفَ به الإيطاليون ، فتظاهر بأنه يتوجه بالخطاب إلى أناس من الطبقة الراقية ، وقال وقد أحنى رأسه أمام الشرطي :

– هل يتفضل ممثل السلطة الجليل الذي يمنع الصعاليك من ممارسة مهنهم في الساحة العامة بأن يذكر لي القانون الصادر بهذا الشان ؟

فأجابه الشرطي بأن عليه أن ينفذ دون اعتراض ، فردّ عليه فيتاليس :

– بالتأكيد سأنفذ أوامرك حتماً ، ولكن على شرط أن تطلعني على القرارات الصادرة بشأنها .

ذلك اليوم أدار لنا الشرطي ظهره وهو يدمدم ، ولكنه عاد في الغد ونحن نقدم عرضنا .

خطا فوق الحبل الذي يفصلنا عن الجمهور وخاطب فيتاليس دون مقدمات : لديك كلاب ، ويجب أن تضع الكمامات على أفواهها ، فقد تكون خطرة .



صرخ فيتاليس :

– أكمم كلابي ؟ ..

– بالضبط .. وهذا قانون ، كان عليك أن تعرفه .

فهتف فيتاليس وهو يتصنّع اليأس هازئاً :

– هل أكمم كابي ؟ وأكمم زربينو ؟ وأكمم السينيورة دولسه ؟ لا أظنك تقبل هذا يا مولاي ! فكيف يستطيع الدكتور كابي المشهور في

أنحاء أوربا أن يعطي الدواء للمريض ؟ سيعطيه يا مولاي بفمه ، ولا يجرؤ كابي أبداً على إعطائه له من مكان آخر أمام هذا الجمهور الكريم .

وأمسك الناس خواصرهم من الضحك ، ووافق الجميع على كلام فيتاليس ، وسخروا من الشرطي الذي جحظت عيناه من الغضب . كانوا يضحكون خاصة من حركات " طبيب القلب " الذي يتواثب مقلداً حركات الشرطي وتصرفاته دون أن يراه .

فهدد الشرطي وهو يبتعد بخطوات سريعة :

– إذا لم تكن كلابك في الغد ..

– إلى الغد يا سيدي إلى الغد .

همس فيتاليس وهو يصاحبه إلى الحبل وقد أحنى رأسه .

اعتذر فيتاليس للجمهور واستأنف العرض ، وجمعنا غلّة وفيرة ، ولكن في المساء حينما تحدثت مع فيتاليس ، أعلن عن رغبته بألا يكمم الكلاب وقال :

– لا تخف ، سأحاول ألا تحدث لي أي مشكلة ، ولكني احتفظ لهذا الشرطي بدور ساخر من الدرجة الأولى ، وذلك في مشهد ابتكرته له ، وسوف يستمتع الجمهور هذه المرة ، ولكن لأجل ذلك سأصل متأخراً عن العرض بعدك بقليل .

سنذهب أولاً مع " طيب القلب " وتعزف على القيثارة لتجذب أنظار الناس ، وحينما يجتمع الجمهور أصلُ ومعي كلابي .

لم أعرف هدفه من هذه الخطة ولكني فعلت ما طلبه مني صباح الغد ، فحملت قيثارتي وربطت الحبال وباشرت العزف ، على حين كان " طيب القلب " يتقافز في الهواء .

كان الجمهور الذي حضر حوار الأمس قد عاد ليرى نهاية هذه الحرب بين السلطة والموسيقيّ ، وسألني عدد من الأشخاص :

– هل سيأتي الإيطالي ؟

فأجبتهم :

– سيصل حالاً .

ولكن الشرطي هو الذي وصل أولاً . كان هائجاً يتمشى أمام الحبال بخطوات سريعة ويداه وراء ظهره مقطب الجبين ، ولم يستطع " طيب القلب " أن يقاوم ولعه بالسخرية من الشرطي ، فمشى في الطرف المقابل من الحبل ويداه وراء ظهره ، كان يخطو خطوات سريعة مقلداً الشرطي . فانفجر الجمهور ضاحكاً ، أما الشرطي فقد جحظت عيناه حنقاً .

لم أشأ أن تتدهور الأمور أكثر من ذلك فناديت " طيب القلب " وأمرته أن يتوقف عن حركاته ، ولكنه لم يستجب لي بل على العكس .

ولا أدري كيف ظنّ الشرطي أنني أحرّض القرد عليه ، فخطا فوق الحبل وقد أعماه الغضب ، وبخطوتين كان أمامي ، وبصفعة واحدة رماني أرضاً .

حين وقفت على قدميّ وفتحت عيني رأيت فيتاليس ولا أعرف كيف وصل ، وقد أمسك بقبضة الشرطي وقال بصوت كقصف الرعد :

– أمنعك أن تصفع هذا الولد ، إن ما فعلته عمل جبان .

وحاول الشرطي أن يخلص قبضته وقد أفقده الغضب صوابه ، ولكن فيتاليس زاد ضغطه عليها ، فأمسك الشرطي بياقة معلمي ودفعه إلى الخلف ، وأحس فيتاليس بالإهانة ، فرفع قبضته وضرب بها ذراع الشرطي ليتخلص منه .

بعد خمس دقائق احتجز فيتاليس في المخفر لمعارضته السلطة العمومية ، ورجعت إلى الفندق حزيناً بأمرٍ من معلمي ومعي الكلاب والقيثارة .

بعد ثلاثة أيام وصلتني رسالة من فيتاليس يعلمني أنه سيقدم إلى المحاكمة ، وبانتظار ذلك سيبقى في السجن .

ذهبت يوم السبت إلى قصر العدل لأشهد محاكمة فيتاليس ، فحكموا عليه بشهرين سجناً ومائة فرنك غرامة مالية .

الفصل السابع

في المركب

قال لي صاحب الفندق حين رجعت وقلبي يقطر حزناً :

- حسناً يا بني ! كيف سارت الأمور ؟

- حكموا عليه بشهرين سجناً ومائة فرنك .

- آه .. يا للويل .

وألقى عليّ خطبة مسهبة مفادها أننا مدينون له بمبلغ من المال ، وأنه على الرغم من طيبة قلبه فإنه لا يقدر أن يعيل طفلاً وثلاثة كلاب وقرداً خلال شهرين ، وأن من واجبي أن أتجول لأكسب لقمة العيش مع كلابي وقردي ، ويتكفل هو بالمحافظة على حوائجي واستلام الرسائل إن وجدت .

فأجبته :

- ولكني بحاجة إلى هذه الأشياء ولا أملك سواها !

- قد تحتاجها ولكنها مرهونة عندي ، وما عليك سوى الذهاب أنت وحيواناتك .

قلت له وقد سيطر علي اليأس :

- أستطيع أن اشتغل عندك مقابل ما تنفقه عليّ .

- وأي خدمة تؤديها لي ؟ هل ستسليني مع كلابك ؟ هيا يا بني كن عاقلاً ، يجب على كل إنسان أن يكسب لقمة عيشه ، فاسع إلى رزقك يرعك الله .

وبقيت أمام بابٍ مغلق يحوي وراءه كل ما نملكه ، وغلبني البكاء ..

كان علي أن أمضي وفي جيبي أحد عشر سنتاً وقيثارتي على كتفي وحيواناتي الأربعة تتبعني ، ولا أعرف لي طريقاً ، وقد تأكدت بعد قضية الشرطي هذه أنني سأفقد كل شيء إذا أطلت البقاء في تولوز .

ما الفائدة من وصف هذه الأيام الرهيبة التي كنت أسير فيها على غير هدى تتقاذفني الطرقات ، أحاول أن أقدم استعراضاتي قرية بعد قرية ، ولكنها تنتهي بظهور أحد حراس الغابات يجبرني على الرحيل قبل أن ألتقط رزقي ، وبدأت علائم الشراسة تظهر على الحيوانات القلقة ولا تطيعني مثلما كان حالها مع فيتاليس .

في إحدى المرات دخل زربينو حانوت لحام وخرج مهرولاً وبين أسنانه قطعة كبيرة من اللحم ، وهربت مع كابي ودولسه وطيب القلب ، وحين التحق بنا زربينو حاولت معه طريقة معلمي الهادئة الحازمة فلم تنجح ، وما إن أسمعته كلمة قاسية حتى اختفى في الريف .

وضعت قيثارتي على الأرض قرب ضفة قناة وأمرت " كابي " أن يحضر ذلك المذنب ، فأطاع كابي رغماً عنه ورجع بعد ساعتين .

عاد وحيداً وأذناه متدليتان .. لقد غادرنا زربينو ..

من شدة حزني خطرت لي فكرة العزف على قيثارتي وقلت لنفسي : إنه عوضاً من أن يهيم الكلبان على وجهيهما الأجدى أن أدربهما على التمارين المعتادة ، ولم يتحمسا لهذه الفكرة أول الأمر ، ولكنهما بدّلا رأيهما بعد عشاء لذيذ .

بعد قليل من العزف بدأت الموسيقا تؤثر فيهما ، وقضت موسيقا " الفالس " على أحزانهما ، ووقفا على قوائمهما الخلفية وبدأا الرقص .

وتذكرت طريقة فيتاليس ، فعزفت أقوى وبتسارع شديد ، وفجأة اندفعت كرة سوداء من الأجمة (الدغل) وأخذت مكانها في الرقص ! إنه زربينو ! بدون حياء ولا اعتذار عاد ليأخذ مكانه في الرقصة الرباعية .

– برافو .. برافو .

والتفتّ إلى الوراء لأرى مندهشاً أن عرضنا قد اجتلب المتفرجين .

نعم .. كان في القناة مركب ، ولكنه مركب لم أر مثله في حياتي ، كان زورقاً بُنيَ فوقه بيت ، وكان يجر هذا الزورق الغريب حصانان توقفا على الشاطئ المقابل يرعيان العشب .

كان في مقدمة المركب شرفة ذات نوافذ زجاجية تظللها نباتات متسلقة فتترامى أغصانها في شلال من الخضرة ، وتحت هذه الشرفة كان ينام على سرير صلب طفل أشقر الشعر يصفق بيديه وهو مَنْ هتف لنا ، وحين أفقت من ذهولي رفعت قبعتي تحيةً له .

السيدة التي كانت جالسة بجانب الطفل سألت بصوت عال ولَكْنة أجنبية :

– هل تعزف لنا المزيد ؟

العزف لجمهور انتظرناه منذ عدة أيام هذا هو غاية الطلب . فعرضنا برنامجنا كاملاً ، وضحك الطفل الأشقر طويلاً وهو يصفق بيديه ، وقد عزفت " الفالس " أولاً فكان كابي ودولسه يرقصان على قوائمهما الخلفية باتزان وإتقان ، ثم رقص " طيب القلب " وحده فأمتع الجميع ، وكأنما أدرك الفنانون جميعاً أنهم سينالون مقابل جهدهم وجبة عشاء دسمة لم نأكل مثلها منذ أيام .

شيء واحد أذهلني وهو أن الطفل الأشقر الذي كان يصفق بيديه ويضحك طول الوقت لم يتحرك أبداً ! وكأنما هو مربوط إلى السرير ، ساكن تماماً ولا يتحرك فيه سوى يديه ، وكنت أراه بوضوح لأنّ الريح دفعت المركب العجيب إلى الشاطئ .

ورأيت وجهه على بعد أمتار مني ، كم كان شاحباً وعليه علائم المرض .

بعد أن مثلنا ثلاثة أرباع برنامجنا سألتني السيدة :

– كم يدفع لك المتفرجون على استعراضك ؟

فقلت لها :

– هذا بحسب المتعة التي يجدونها .

فقال الولد باندفاع :

– يجب أن تعطيه الكثير من النقود .

ثم أضاف بضع كلمات لم أفهمها .

قالت السيدة :

– يريد .. " آرتور " أن يرى الممثلين عن قرب . فأشرت إلى كابي فاستجمع قواه وبقفزة واحدة صار في المركب .

وتبعه الكلبان الآخران في الحال ، كانوا كفرحة العيد بالنسبة إلى الولد الأشقر ، وأراد " طيب القلب " أن يتبعهم ، ولكني منعته ، فسألتني السيدة :

– لماذا منعته ؟ أهو شرير ؟

– لا يا سيدتي ، ليس شريراً ، ولكنه يعصي الأوامر ، وأخشى أن يسيء التصرف .

وهتف " آرتور " بحماسة :

– القرد .. القرد .. أريد أن أرى القرد .

فقالت السيدة :

– من الأفضل أن تأتي معه .

فأشارت إلى أحد البحارة ، فثبت لوحاً طويلاً من الخشب اجتزت عليه وصعدت إلى المركب والقرد على كتفي والقيثارة على الكتف الآخر .

وحين وضعت القيثارة على سطح المركب سألتني السيدة :

– هل لك أهل يا بني ؟

– لي أب .. ولكنني وحيد في الوقت الحاضر لوقت طويل ؟

– لوقت طويل ؟

فطأطأت رأسي وأنا أقول :

– لمدة شهرين .

– شهرين ؟ ولكنها مدة طويلة بالنسبة إلى طفل في مثل سنك .

قلت وأنا لا أرفع رأسي :

– لا مفرّ من هذا .

وفجأة قاطعني " أرتور " المربوط إلى اللوح :

– ولكنك حين تلعب مع الكلاب تحس بالجوع ؟

فأطرقت رأسي ، ولكن هذه الكلمة تفهمها الحيوانات جيداً " الجوع " .

بدأت الكلاب تطلق نباحاً عالياً ، وجعل طيب القلب يدلّك معدته بيده بحركة لا تخفى قوتها التعبيرية على أحد .

ضحكت السيدة وأصدرت بلغتها عدة أوامر إلى أحد البحارة ، وبعد دقيقة جلسنا جميعاً أمام المائدة . بدأ كابي بالتهام اللحم المفروم ومعه زربينو ودولسه ، أما طيب القلب فكاد يختنق بلقمة كبيرة .

أما أنا وأظن أنني كنت أبكي أثناء تناول الطعام ، فلم أكن أقل شراهة من " طيب القلب " .

كانت السيدة تردد من وقت إلى آخر وهي تملأ لي القدح :

– الولد المسكين ..

و " أرتور " ينظر إلينا بدهشة كبيرة ، ثم سألني أخيراً :

– ألا ترغب في البقاء معنا ؟

فنظرت إليه مذهولاً وأصرّت السيدة قائلة :

– نعم يسألك ابني إن كنت ترغب في البقاء معنا بعض الوقت ؟ فأنت ترى أنه مريض ، وقد أمر الأطباء بأن يبقى مربوطاً إلى هذا اللوح ، وهذه هي الطريقة الوحيدة لإنقاذه ، ولئلا يسأم قمت بالتجوال بهذا المركب .. ستبقون معنا وسيعرض الممثلون فنونهم ، وسيكون " أرتور " جمهورهم الوحيد ، وتستطيع أن تعزف على القيثارة إذا شئت فإني أجد عزفك جميلاً ، وبذلك لا تحتاجون إلى البحث كل يوم عن جمهور جديد ، وهذا ليس سهلاً بالنسبة لصغير في مثل سنك .

وصعقت من الفرحة ،واقتضى الأمر مني بضع ثوان لأدرك روعة هذا الاقتراح . فجذبتُ يد السيدة وقبلتها تعبيراً عن العرفان بالجميل .

وبعد مدة عرفت مَنْ هؤلاء الذين أفاضوا علينا رعايتهم في مصادفة سعيدة . كانت السيدة " ميليغان " إنكليزية وكانت أرملة ، و " أرتور " ولدها الوحيد ، ولكني عرفت بعدئذ أنه كان لها طفل اختفى في ظروف غامضة من سنين طويلة ، وأن السيدة " ميليغان " أصيبت بمرض عضال بعد وفاة زوجها .

لقد اختفى هذا الطفل وهو رضيع في المهد ، ولم يُعثر عليه على الرغم من الأبحاث التي قام بها أخو زوجها السيد " جيمس ميليغان " ،

ومن الصواب القول إنه ليس من مصلحة السيد جيمس أن يجد ابن أخيه ، لأنه بعد وفاة أخيه دون أولاد يصبح وارثه الوحيد ، ولكن مهما تكن نوايا السيد " جيمس ميليغان " فقد خاب أمله بعد سبعة أشهر من وفاة أخيه ، إذ أنجبت زوجة أخيه طفلاً أسمته " أرتور " . كان هذا الولد ضعيف البنية عليلاً ، وأجمع الأطباء على أنه لن يعيش ، وهكذا استعاد السيد " جيمس ميليغان " شيئاً من الأمل ، ولكن على غير ما هو متوقع عاش السيد " ارتور " وظلّ عليلاً .

إن العناية الإلهية أبقته على قيد الحياة ، وأصيب بعد سنوات بمرض في العظام يدعى " الوُراك " أو مرض الورك ، ونصحه الأطباء بالمعالجة بالمياه الكبريتية ، فأخذته أمه إلى بلدة في منطقة البيرينيه فلم يستفد شيئاً ، فاقترح الأطباء طريقة جديدة هي ربط الطفل إلى لوح من الخشب حتى لا يتحرك ، ولكي تزيل الأم عن ولدها السأم تخيلت هذه الطريقة في التجوال . فبنت بيتاً فوق المركب بحيث لا يتحرك أرتور من مكانه ولكنه يرى المناظر الطبيعية تتوالى أمام ناظريه ولا ينال منه السأم .



يوم وصولي إلى مركب " البجعة " – وهذا اسمه – تعرفت على حجرتي . كانت حجرة صغيرة مصنوعة من الخشب ، وهي أعجب غرفة يمكن أن يتخيلها طفل .

كنت أنام هانئاً في فراش مريح على حين كانت البجعة تنساب بهدوء تحت ضوء البدر الذي أراه من قُمرتي الصغيرة .

نهضت في الصباح الباكر لأتفقد الكلاب و" طيب القلب " الذي غضب مني مدة قصيرة لأني لم آخذه معي لقُمرتي ، ولكن فكره الذي لا يثبت على شيء أنساه سبب غضبه بسرعة شديدة .

ذهبت لتحية السيدة ميليفان ولم يكن وارداً أن نمثل هذا الصباح لأن السيدة ميليفان تدرّس " آرتور " .

لم يكن يبدو عليه أنه مهتم بالدرس ، وكان يردد بسأم النص الذي تقرؤه له أمه من الكتاب . وبعد أن عاتبته أمه ، انفجر بالبكاء فتركته غاضبة . دنوت منه وسألته عن سبب حزنه ، أجابني :

– لا أستطيع حفظ هذه الحكاية ، هي صعبة جداً .

أمسكت الكتاب وقرأته ثلاث مرات أو أربعاً وقلت له :

– هل تستطيع أن تسمع الحكاية مني ؟

فقال وهو مندهش : كيف ذلك ؟ هل تظنك قادراً على استظهار حكاية قرأتها مدة خمس دقائق ؟

فأجبته : ولِمَ لا ؟

واستظهرت الحكاية بلا أغلاط تقريباً ، فسألني وعيناه مفتوحتان من الدهشة : كيف تفعل ذلك ؟

وشرحت له الطريقة التي تعلمتها من فيتاليس ، وهي أن أتصور في مخيلتي ما يقوله النص من نهرٍ وخروفٍ وذئب ، وسواها .

وجد " آرتور " هذه الطريقة ممتعة ، وأراد أن يجربها دون إبطاء .

وبعد عشرين دقيقة رجعت السيدة ميليفان فاستظهر لها " آرتور " الحكاية من أولها إلى آخرها دون أغلاط .

فغمرت الدهشة السيدة " ميليفان " ، وغمر الاعتزاز ولدها " آرتور " .

قال لها : إنه ريمي الذي شجعني على حفظ الحكاية .

قالت السيدة : إنك ولد طيب .

رويت هذه الواقعة بإسهاب لكي أشرح أن حالتي تبدلت تماماً خلال الأربع والعشرين ساعة ، فقد صعدت إلى المركب البارحة وأنا مدرب كلاب أُرفِّهُ عن طفل مريض ، ومن الغد أصبحت رفيق " أرتور " ، ودام الحال هكذا عدة أسابيع .

الفصل الثامن

الطفل المستعاد

مرّت الأيام ، وازداد شوقي إلى رؤية فيتاليس واقتراب موعد خروجه من السجن ، وانقبض صدري حينما بدأنا نبتعد عن تولوز أكثر فأكثر .

عزمت أن أناقش السيدة " ميليغان " حول موعد سفري .

هتف "آرثور" في الحال :

– لا أريد أن يتركنا ريمي .

وأجبته بأني لست حراً في ذلك ، ويجب أن أعود إلى معلمي لأن أهلي قد أجّروني ، لم أذكر له أنني لا أعرف أهلي الحقيقيين ، فقد خجلت من الاعتراف بأني طفل لقيط .

قال " آرتور " بصوت جازم :

– ماما يجب أن تمنعي ريمي من الذهاب ، لا يجوز أن يعود إلى الطريق مرة ثانية .

فأجابته السيدة "ميليغان" بلهجة جادة :

– لا أستطيع الاحتفاظ به إلا بشرطين ، الأول أن يقبل ريمي البقاء .

فقال آرتور :

– أنا أقنعه بهذا .

– والثاني أن يرضى معلمه بالتنازل عن حقوقه عليه .

وختمت السيدة " ميليغان " حديثها قائلة :

– مهما يكن الأمر ، فلن يرجع ريمي ماشياً إلى تولوز ، سأكتب إلى معلمه وأرسل إليه مصاريف الرحلة ، ولعله يدرك بأننا لا نستطيع ركوب القطار ويقبل دعوتي ، وإذا قبل اقتراحي بشأن ريمي فلن يبقى علينا سوى مراسلة أهله للحصول على موافقتهم .

ورنّت هذه العبارة في أذني : " الحصول على موافقة أهله ! " .

سيعرفون حينئذ بأني لست سوى طفل لقيط ، فترغب عني السيدة ميليغان وكذلك آرتور .

بعد ثلاثة أيام وصل جواب فيتاليس يعلمها بأنه يتشرف بقبول دعوتها وأنه سيصل السبت القادم في قطار الساعة الثانية .

ذهبت في الموعد أنتظره مع الحيوانات ، وحين نزل من القطار أحاطت به الكلاب المشوقة من كل جانب .

ثم احتضنني بين ذراعيه وقبلني وهو يردد : " يا إلهي أيها الولد المسكين " .

كان لدي الكثير لأحكيه له ، فاختلطت عليّ الأمور وهو يراقبني من تحت حاجبيه الكثيفين .

مضى وحده إلى الفندق لمقابلة السيدة ميليغان ثم عاد بعد ساعة وقال :

– اذهب لوداع السيدة ميليغان ، سنسافر بعد عشرين دقيقة .

ظننت أني سأسقط مغشياً عليّ فنظرت إليه مذهولاً .

– هل هذا يدهشك ؟ لا شك أن اقتراح السيدة ميليغان لا بأس به ، ولكنني أجبتها بما يمليه علي ضميري ، قلت لها : إنني أحب هذا الطفل وأظنه يحبني أيضاً ، وأنا أعلم أنك ستقومين بتعليمه وتهذيبه .. هذا أكيد ، وسوف تطورين فكره ، ولكني سأطور شخصيته كلها بممارسته أعباء الحياة التي نعيشها معاً ، وهذا أفضل له من حياة الخدم التي سيحياها بقربك ، لن يكون ابنك ولكنه قد يكون ابني في مستقبل الأيام ، وسوف أقدم إليه ما أستطيع من معرفة .

بعد نصف ساعة كنت أسير بجانب فيتاليس على الطريق وأنا أحس بغصة لوداع السيدة ميليغان وصديقي آرتور العزيز .

الفصل التاسع

ثلوج وذئاب

حملت القيثارة على كتفي ، واستأنفت السير في طريق لا نهاية له وسط الغبار والوحول ، ويجب عليّ مجدداً أن أمثل دور الغبيّ في الساحات العامة ، فأبكي وأضحك لأسلي الجمهور الكريم ، لقد تعودت سريعاً على حياة الرفاهية ، والرجوع إلى حياتي السابقة أمر شديد الصعوبة .

أما معلمي فقد أصبح أكثر دماثةً من قبل ، ولكن هذا لم يمنعني من البكاء حينما أتذكر أرتور ومركب " البجعة " .

اقترب الشتاء وبرد الجو وأصبح رطباً ، فكانت عظامنا تتجمد من البرد ونحن نخوض في المياه والوحول ، وبدت الكآبة على " طيب القلب " أكثر مني .

كان اجتياز هضاب " الكوت دور " عذاباً شديداً ، وقد أراد فيتاليس أن يصل إلى باريس بأسرع ما يمكن ، لأننا لا نسطيع تقديم عروضنا شتاءً إلا فيها ، ولكن يجب الذهاب إليها سيراً على الأقدام .

كنا نقدم عرضنا في المدن أو القرى الكبيرة حينما يواتينا الطقس .

وتابعنا المسير في غابة متشابكة الأغصان والثلج يتساقط من كل ناحية وينـــزلق عن فروتي ثم يذوب صقيعاً بين كتفيّ .

وكان فيتاليس دائم التلفت حوله .

عم يبحث ؟ عن فندق ؟

فجأة رفع يده مشيراً إلى شيء على ناحية اليسار ، فنظرت إلى حيث أشار فإذا كومة من الحطب .

لقد كانت كوخاً من الأغصان ، كوخ أحد الفحامين .

دخلناها بعد لحظة ، ولكن الكلاب سبقتنا إليها وجعلت تتقلب على الأرض الجافة وتطلق صيحات الفرح .



كان الكوخ صفوفاً من الحجارة المتراكمة بعضها فوق بعض ، وكانت كافية لحمايتنا من تقلبات الطقس ، وكان الكوخ جافاً ولكنه شديد البرودة ، والحطب متوفر طبعاً ويكفيك أن تجذبه من الجدران ، وبعد عدة دقائق كانت النار التي أشعلها فيتاليس بعناية لئلا يحترق الكوخ تبعث الدفء في أجسادنا .

ما أجملها من نار ! ..

سرعان ما قفز " طيب القلب " من الفروة التي يلبسها فيتاليس ، وبدأ يتقلب بجانب النار ويصطلي بها ويقرب إليها يديه السوداوين المرتعدتين ، قال فيتاليس :

– أظننا سنقضي الليلة هنا ، فنحن في أمان من الثلج ، ولكن ليس لدينا مؤونة .

والواقع أننا لم نكن أغنياء ، ولم تترك الغرامة المالية التي دفعها فيتاليس شيئاً مما كسبناه سابقاً ، ولكي يشتري لي فروة خروف باع ساعته ، الساعة الفضية الكبيرة التي كان كابي يعرف بها الوقت ، وأخرج فيتاليس سكينه وقطّع بيننا قطعة الخبز الباقية .

كانت الكلاب ترمقنا بنظرات لامعة متشوقة ، وكأنها تتوقع بقية العشاء ، وحين خاب ظنها تكومت على نفسها ونامت .. وحلّ الظلام ..

كان نوم فيتاليس خفيفاً ، ولو تركني أسحب الحطب من الجدران لما استطاع النوم ، فجعلت أزود النار بالحطب وأنا أفكر ، وأما زربينو فقد ظلّ ساهراً ينظر من الباب وأذناه منتصبتان . ناديته بصوت خفيف :

– إلى هنا ، زربينو إلى هنا .

– فنظر إلي دون حركة ، ثم جعل يحدق في الظلام .

قلت لنفسي : " لا أظنه سيخرج للتجوال في مثل هذا الطقس " . وجلست أمام النار وعيناي مفتوحتان على سعتهما .

أيقظني من نومي عواء هائج . كانت النار خامدة تقريباً .سأل فيتاليس وقد نهض فزعاً :

– ماذا حدث . هل نمت وتركت النار تنطفئ ! ولكن أين زربينو ودولسه ؟

وصرخت مذعوراً :

– لقد خرجا ، سأمضي للبحث عنهما .

فأمرني فيتاليس :

– ضع أولاً قطعة حطب في النار .

ونفخ في جذوات النار ليزيدها اشتعالاً .

كابي أمام الباب لا يكف عن النباح ، فكانت تجاوبه ثلاثة أصوات نباح شاكية وراء الكوخ .

قال فيتاليس بحزم :

– إنها الذئاب ، هيا لنرى .

وحمل بيده غصناً مشتعلاً ، وفعلت مثله على الرغم مما سمعت وأنا صغير من حكايات مرعبة عن الذئاب .

لم نجد صعوبة في تتبع آثار زربينو ودولسه على ضوء المشعلين ، فقد كانت مطبوعة على الثلج بوضوح ، ولكن لم يبق منهما سوى هذه الآثار ، وفي مكان غير بعيد وجدنا بركة دم على الثلج ، فقال فيتاليس وهو يهز رأسه :

– لا فائدة لقد نهشتهما الذئاب وحملتهما معها ، لنرجع ..

بعد عودتنا إلى الكوخ حيث سبقنا كابي وهو يرتعد من البرد ، كانت مفاجأة أخرى بانتظارنا : لقد اختفى " طيب القلب " ، ناديناه طويلاً وبحثنا عنه في كل بقعة من الكوخ بلاّ جدوى ، قلت :

– هل تظن أن الذئاب قد اختطفته ؟

قال فيتاليس :

– لا أظن فهي لا تجرؤ على الدخول إلى الكوخ المضاء ، ولعله خاف من عواء الذئاب فهرب إلى مكان ما ، ولكن المصيبة أنه مع هذا الزمهرير قد يصيبه مرض مميت .

حينما طلع النهار ، وجدناه فوق شجرة هرب إليها وكانت أعضاؤه كلها ترتعد .

فهل ترتعد من البرد ؟ أم من الفزع ؟ وكان متجمداً تماماً .

الفصل العاشر

السيد " طيب القلب "



انقشعت الغيوم ، وأشرقت الشمس ، وانعكست أشعتها على صفحة الثلوج ، وأصبحت الغابة متعة للناظرين وهي مغطاة بثوبها الناصع البديع ، ولكن البرد شديد .

قال فيتاليس :

– علينا الذهاب إلى القرية حالاً ، وإلا مات " طيب القلب " هنا ، وقد يموت معنا في الطريق ، لقد كان هذا الكوخ فندقاً دفعنا ضيافته غالياً .

بعد عشر دقائق من المسير صادفنا عربة ، وقبل سائقها أن ينقلنا معه ، وعلمنا أنه ما تزال أمامنا مسيرة ساعة قبل الوصول إلى القرية . كنّا نسير ببطء ، وكان الثلج يصل أحياناً إلى وسطنا .

ولكن بعد ساعة من الجهد الشديد وصلنا إلى القرية .

توقف فيتاليس خلافاً لعادته أمام فندق ضخم ودخله وقد اصطنع مظاهر الأبهة وكأنه سيد محترم ولم يخلع قبعته ، وبثقة كبيرة وصوت حازم مرتفع طلب غرفة ، أما صاحب الفندق فقد دهش في البداية لمظاهر الخيلاء التي تبدو على هذا المتشرد ذي الملابس العجيبة ، وتردد ثم أمر بأن تعطى له غرفة ، وما كدنا ندخلها حتى أمرني فيتاليس بالنوم فأطعته دون أن أفهم شيئاً ، وسحب اللحاف فوقي حتى ذقني وقال :

– كلما تدفأت كان هذا أفضل .

نزل فيتاليس بعدئذٍ إلى المطبخ ثم جاء ومعه فنجان من الشاي الساخن ، وحاول أن يسقي منه " طيب القلب " بضع جرعات ، ولكن القرد البائس لم يفتح فمه ومدّ يده إلى فيتاليس وعيناه تلمعان .

سألت فيتاليس عن معنى هذه الحركة ، فقال لي إن القرد كان مصاباً بنـــزلة صدرية منذ زمان طويل وقد عولج بفصد ذراعه ، وهو يطالب الآن بالعلاج نفسه ، وكان فيتاليس حائراً ، فأخذ قبعته وخرج ورجع بعد برهة ومعه رجل ضئيل الحجم منتفخ البطن ، يضع نظارتين مذهبتي الإطار ، إنه الطبيب ، وكان فيتاليس يخشى أن يرفض الطبيب عيادة قرد صغير فلم يذكر له جنس المريض على التحديد .

ظن الطبيب أنني المريض إذ رآني ممدداً في الفراش ، وكنت قد تعرقت واحمرت وجنتاي بعد أن شربت الشاي الساخن الذي رفض القرد تناوله .

وضع الطبيب يده على جبيني ثم قال : احتقان .

قلت له : عفواً ولكني لست المريض ..

فتابع بإصرار : وهذيان .

فكشفت اللحاف عن " طيب القلب " وقلت له : هذا هو المريض .

فصرخ الطبيب : كيف ؟ قرد ؟ من أجل قرد تكلفت عناء المجيء ؟ وفي هذا الزمهرير أيضاً ؟

وتناول فيتاليس حينئذٍ الكلمة ، وكان بارعاً في التفاصيل ، فشرح للطبيب أن أمراض القرود هي شبيهة بأمراض البشر ، ومن المستحيل أن نعرض " طيب القلب " على بيطري لا يعرف شيئاً ، وأننا حين نستعين بالطبيب فإنما نستعين بالعلم والإحسان معاً .

وسكّنت هذه الأقوال المنمقة غضب الطبيب ، فابتسم وهو يقول : لعلها حالة متفردة أيضاً .

كانت كل ثروتي خمسة قروش ، فاشتريت بها قصب السكر لطيب القلب ، ولكنها لسوء حظي فكرة سيئة ، فقد فهم القرد الخبيث أني أعطيه قطعة قصب السكر كلما انتابه السعال ، ولذلك كان يتصنع السعال لشراهته ، وما زال يتظاهر بالسعال حتى أصيب به فعلاً وكاد يختنق ، ولم أعرف ماذا أفعل له .

بعد عدة أيام طالبنا صاحب الفندق بالكراء ، ولم يكن أمامنا سوى حل واحد ..

تقديم استعراض في القرية ، نعم .. ولكن كيف ؟ دون زربينو ودولسه ولا طيب القلب ، أي دون نصف الفرقة ؟

استأجر فيتاليس مخزناً واسعاً من أجل الحفلة المسائية ، وطلب من طبال القرية أن يعلن عن استعراض يظهر فيه هذا المساء " فنان مشهور في العالم كله" ويقصد " كابي " ومغنّ شاب ذو مستقبل زاهر ، ويقصدني ، وترك ثمن الدخول لمبادرة المتفرجين وكرمهم .

لا أريد الحديث عن هذا الاستعراض ، فلم يتجاوب الجمهور معي ، وكانت الغلة زهيدة على الرغم من مجهودات كابي لحثهم على الدفع ، وعلى الرغم مما بذلته أنا وفيتاليس لإقناعهم بالمعزوفات الإسبانية ، كان يلزم أربعون فرنكاً على الأقل ، ولم نجمع هذا المبلغ بعد ، حينئذٍ اتخذ فيتاليس قراراً هاماً وخاطب الجمهور قائلاً :

– سيداتي سادتي ، أستطيع القول بكل اعتزاز إن فرقة فيتاليس قد قدمت البرنامج الذي وعدتكم به ، وبما أن الشموع التي تضيء لنا لم تذب بعد ، فإني أستأذن الحضور الكريم بالغناء لهم لعل الذين لم يدفعوا لنا شيئاً هذا المساء يجدون الطريق إلى جيوبهم .

لقد كان فيتاليس أستاذي فعلاً ، ولكني لم أسمعه يغني غناء متقناً ، ولم أسمعه يغني بتلك الطريقة التي غنى بها اليوم .

كنت مدهوشاً به ، حينما أشارت إليّ فتاة شابة في الصف الأول بالدنو منها ، ولم ألاحظ وجودها من قبل ، لأنها بالغة الأناقة ، ولأنها لم تعطنا شيئاً أيضاً

قالت لي :

– أريد أن أقول كلمة لمعلمك إذا أمكن .

حينما كان يقوم بحملة ثانية لجمع النقود أخبرتُ فيتاليس بطلب السيدة ذات الفراء الثمين .

فتساءل بلهجة غاضبة لم أدر سببها :

– ماذا تريد مني ؟

ثم اقترب من السيدة وحيّاها بجفاء . قالت السيدة :

– أعتذر يا سيدي لإزعاجك ، ولكني حريصة على تهنئتك .

فانحنى لها فيتاليس دون أن يجيبها ، وتابعت السيدة قائلة :

– أريد أن أعلمك أنني موسيقية ، وقد أثرت فيّ موهبتك الرائعة في الغناء .

– أي موهبة لدى شيخ هرم مثلي ؟ لعلك دهشت لأنك سمعت غناء حسن الأداء لمتشرد يرقّص الكلاب المدربة .

– ربما ، مهما يكن الأمر فإني أهنئك على هذه العاطفة النبيلة ، الوداع يا سيدي ، وشكراً .

ثم انحنت على كابي ووضعت في طاسته قطعة ذهبية .

وظل فيتاليس ساكناً لم يتحرك لمرافقتها ، وحين ابتعدت ضرب جبهته بكفه . وعاتب نفسه بكلمات لفظها بالإيطالية .

قلت له :

– أعطت السيدة لكابي قطعة نقد ذهبية .

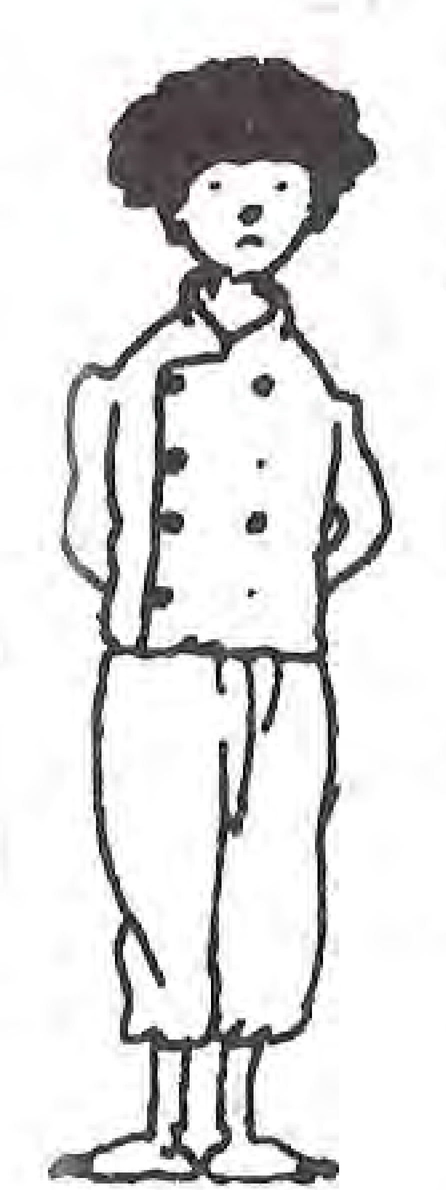
نظر إليّ بعينين شاردتين وكأنما يعود إلى الأرض :

– قطعة ذهبية ؟ آه .. لقد نسيت طيب القلب المسكين نسيته ، هيا لنذهب إليه .

حين وصلنا إلى غرفة الفندق وجدنا القرد ممدداً على السرير ، كان بارداً يابس الجسد ، لقد ارتدى المعلم " طيب القلب " للمرة الأخيرة بذلة الجنرال الإنكليزي قبل أن يفارق الحياة .

الفصل الحادي عشر

المعلم في شارع " لورسين "



كان فيتاليس متشوقاً الآن للوصول إلى باريس ، وقد كانت رحلة حزينة لم يبق بعدها من أفراد الفرقة الأربعة سوى كابي .

من أعلى الهضبة بعد خروجنا من قرية " بواسي " أطللنا على مزيج متنافر من النواقيس والأسطحة والأبراج غارقة في سحابة من الضباب والدخان الأسود .

نظر فيتاليس إلى هذا المشهد الحزين ثم جلس على جانب الطريق . قال لي وكأنه يستكمل محادثة بدأها منذ زمن طويل :

- لقد تبدلت حياتنا ، وبعد أربع ساعات نكون في باريس .

- هل هي باريس الممتدة هناك ؟

- بالتأكيد ، وفي باريس يجب علينا أن نفترق .

همست وأنا أتأمله مذعوراً :

- نفترق ؟

- نعم سنفترق يا صغيري العزيز .

- هل تريد التخلي عني ؟

- لا ، طبعاً لا أريد التخلي عنك ، صدقني ، ماذا ستفعل في باريس وحيداً يا ريمي الصغير ؟ ذلك أني حين رفضت أن أتركك للسيدة ميليغان فقد أخذت على عاتقي بعض المسؤوليات تجاهك وسوف أوفي بها ، وكما ترى لسوء الحظ فإن الظروف تعاندنا هذه الأيام ، والناس في باريس لا يقنعون باليسير ، ولا نستطيع أن نقدم لهم استعراضنا ونحن ثلاثة فقط ، وإليك ما عزمت عليه :

سأودعك حتى نهاية الشتاء لدى معلم العزف على القيثارة ، ليدربك على العزف جيداً ، أما أنا فسوف أعطي دروساً في الموسيقا للأطفال الإيطاليين العاملين في باريس ، فأنا معروف هنا وسأنال من الدروس أكثر من كفايتي ، وفي الوقت نفسه سأنصرف إلى تدريب كلبين يعوضان زربينو ودولسه فإذا جاء الربيع يكونان قد أنهيا تعليمهما ، فنستطيع يا ريمي الصغير التجوال ونستأنف حياتنا الطليقة في الربيع ، ولسوف أريك ألمانيا وإنكلترا وربما إيطاليا .

حين أفكر اليوم أظن أن معلمي قد بذل ما أمكنه لكي ينقذنا من هذه الحالة السيئة ، وأن قراره كان أفضل ما يكون ، ولكني لم ألمح سوى شيئين في خطابه : افتراقنا وفكرة تعليم العزف .

وسرنا طويلاً في شوارع باريس البشعة ، وفي زاوية من أحد المنازل لمحت اسم الشارع " لورسين " ، وكان يبدو أن فيتاليس يعرف أين يمضي ، فتبعته كالكلب الأمين خشية أن أضيعه .

دخل باحة واسعة ثم تبع ممراً مظلماً حتى وصل إلى شيء شبيه بالبئر المعتم لا تدخله الشمس أبداً ، وبدا لي هذا المكان أبشع مكان رأيته في حياتي . وسأل فيتاليس رجلاً ينشر أسمالاً بالية على الجدار :

– هل " غارفولي " في البيت ؟

– لا أعرف ؟ اصعد لترى بنفسك ، هل تعرف بيته ؟

فصعدنا سلماً أسود ينــز دسماً وقال لي فيتاليس :

– غارفولي هو المعلم الذي حدثتك عنه .

في الطابق الرابع فتح الباب دون أن نطرقه ونادى . كانت الغرفة واسعة خالية من الأثاث ، فأجابنا صوت ضعيف :

– السينيور غارفولي ليس هنا ، ولا يأتي إلا بعد ساعتين .

ولمحت حينئذ طفلاً في العاشرة يتقدم نحونا ببطء وتجمدت لرؤيته ، كان رأسه ضخماً بالنسبة إلى جسمه النحيل ، وكانت ترتسم على ملامح وجهه علامات الألم والحزن والاستسلام ، كان مخيفاً ، ولكن عينيه الواسعتين الحزينتين تقربانه إلى النفس .

وسأله فيتاليس :

– هل أنت متأكد أنه سيأتي بعد ساعتين ؟

– متأكد يا سيدي ، هذا وقت الغداء ، ولا أحد يقدمه سواه .

– حسناً سأعود ، وسوف تنتظرني هنا يا ريمي .

وصدرت عني حركة تعبر عن الذعر ، فقال لي مبتسماً :

– أؤكد لك أني سأعود .

وبقيت .. وحين غابت خطوات فيتاليس عن سمعي في السلالم ، نظر إليّ الطفل وخاطبني بالإيطالية :

– هل أنت من بلدتي ؟

– من بلدتك ؟ ! أي بلدة ؟

– بلدة لوك ، أنت لست من بلدتي لسوء الحظ ، تمنيت لو جاءني منها خبر ، ولكنك طفل محظوظ .

– لماذا أنا محظوظ ؟

– لأنك لو كنت إيطالياً لدخلت في خدمة السينيور غارفولي ، ولكنك فرنسي لحسن الحظ ، ويا ويل من يدخل في خدمة السينيور غارفولي ..

وسألت مرتعداً :

– هل هو شرير ؟

لم يجبني الطفل ، ولكن نظراته أدخلت الرعب إلى قلبي ، ثم التفت ومضى وجلس قرب الموقد حيث طنجرة تغلي ، وذهلت لرؤية هذه الطنجرة ، فقد كان بغطائها مفصّلات ، وأنبوب صغير يخرج منه البخار . وكانت مغلقة بقفل كبير ، وتساءلت عن سبب هذا الإغلاق العجيب ، فأجاب الولد وهو جامد الملامح :

– هذا اختراع للسينيور غارفولي لئلا آكل الحساء أثناء غيابه .

فضحكت ، فأجاب الولد بهدوء :

– أتضحك ؟ وتظن أني شره لا ريب ، إني جائع فحسب .

وبعد أن ألححت عليه بالأسئلة روى لي " ماتيا " – وهذا اسمه – كل حكايته :

كان غارفولي خاله وقد جلب معه " ماتيا " من إيطاليا ، لأن في البيت الصغير في لوك هناك ستة أطفال آخرين ، وفي طريقه إلى فرنسا جلب غارفولي عشرة أولاد ليجد لهم عملاً في باريس ، وقد فرض على كل طفل مبلغاً معيناً يجلبه إلى معلمه آخر النهار ، فإذا نقص المبلغ نال الطفل عقوبته ، ولم يكن " ماتيا " قوياً ليشتغل في تنظيف المداخن ، فأعطاه غارفولي فئراناً بيضاء يسرح بها في الطرقات ليتفرج عليها الناس ، ويتصدقوا عليه ببعض المال ، ولكن غلته لم تكن وفيرة ، لأنه

قبيح الشكل والناس لا تتصدق إلا على من كان مقبول المظهر كما قال .

لذلك أنقص حصته من البطاطا عقوبة له ، ناهيك عن ضربات الهراوة ، وحين ظهر الهزال على " ماتيا " بدأ الجيران يتصدقون عليه بصحن من الحساء لئلا يموت جوعاً ، وفضل غارفولي أخيراً أن يتركه في البيت ليبقي نار الموقد دائمة الاشتعال .

وتابع " ماتيا " حكايته قائلاً :

– ولسوف يحتفظ بي غارفولي هنا مهما كنت شاحباً ، ولكنه لم ينس لحسن الحظ عادة الضرب مثلما يضرب الآخرين ، وفي الأسبوع الماضي تلقيت ضربة هراوة على رأسي فصار رأسي متورماً ، ويزداد تورمه يوماً بعد يوم ، أترى هذا النتوء الكبير الأبيض في رأسي هنا ؟ قال لي البارحة إنه قد يكون دمّلاً ، ولا أعرف ما هو ، ولكن آمل أن يكون دمّلاً فأستطيع الذهاب إلى المستشفى أخيراً ، وآكل حتى أشبع ، آه كم تمنيت الموت ..

كان يحكي ذلك وهو يتحرك هنا وهناك ، ودخل الأطفال الذين يسكنون لدى غارفولي واحداً تلو الآخر .

فعلق هذا على المسمار قيثاره ، وذاك مزماره ، وآخر كمنجة ، وكان يظهر عليهم جميعاً المرض وسوء التغذية .

رأيت على طول الحائط اثني عشر فراشاً مبسوطة على الأرض وفوقها أغطية مهترئة ، ولأن عدد الصحون أربعة وعشرون ، فقد عرفت أن كل اثنين من هؤلاء ينام على فراش واحد .

ثم دخل غارفولي ، ولم يكن الغول الذي تخيلته ، بل كان على العكس رجلاً ضئيل الجسم نحيلاً ، عيناه سوداوان لامعتان ، وله لحية تلتهم خديه ، وأفضل الانتقال إلى المشهد التالي : مشهد حسابات اليوم . كان الأولاد جميعاً في الخدمة ، فيحمل إليه أحدهم غليونه المحشو تبغاً ، والآخر يشعله له .

ولم يتكلم معي تقريباً ، فقد كان متشوقاً لمعرفة ما يريد منه فيتاليس .

بعد أن انتهت حسابات اليوم أصدر غارفولي أربع عقوبات أوكَلَها إلى العريف المفضّل لديه ، فكشف قمصان الأربعة البائسين وانهالت السياط على أجسادهم ، على حين كان غارفولي يدخن غليونه ويتأمل الموقد ، لأن المشهد – كما يزعم – يسبب له الألم ، وارتعدت من الخوف ، وفي غمرة هذا المشهد المخيف دخل فيتاليس ، فكان أول شيء فعله بعد لحظة من الذهول أن انتزع السوط من يد العريف ورماه ، ثم التفت إلى غارفولي وقال له غاضباً :

– عار عليك يا غارفولي أن تعذب أطفالاً لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم .

فقال غارفولي : "ولماذا تتدخل فيما لا يعنيك أيها المجنون الهرم ؟ !

– أتدخل فيما يعني الشرطة .

– الشرطة ؟ أتهددني بالشرطة ؟ أنت ؟

قال غارفولي بلهجة ساخرة : اسمع يا فيتاليس ، لا تكن شريراً وتهددني بالشرطة ، لأني أستطيع أن أبوح بأشياء لأناس تهمهم معرفتها لا ريب ، ومن منا يستطيع أن يرفع رأسه حينئذٍ ؟ ويكفي أن أذكر اسماً واحداً يا فيتاليس وسنرى من يركبه العار ..

أحكم سيدي قبضته وتطاير الشرر من عينيه .. هل يخشى العار؟

وذهلت... وقبل أن أفيق من ذهولي جذبني فيتاليس من يدي وهو يقول : اتبعني .

فقال غارفولي وهو يبتسم :

– هل تصافينا ؟ ألا تكلمني ؟ !

– لا شيء لدي أقوله لك .

ولم ينطق بكلمة وهو يهبط السلم ورائي ، ولا أستطيع وصف فرحتي ، فقد نجوت من غارفولي الوضيع ولو كانت لي الجرأة لقبلت فيتاليس .

الفصل الثاني عشر

مقالع الحجر في جنتيلي

كان فيتاليس يمشي ساكتاً كلما رأى أناساً في الطريق ، ولكنه حين وصل إلى درب مهجور جلس على حافة الرصيف ونظر إليّ وهو يفرك جبينه ، وقال يخاطب نفسه :

– كم سمعت عن كرم الناس ، ولكن ها نحن على الرصيف في باريس وليس في جيبنا قرش واحد ولا كسرة خبز يابسة ، وآمل يا ولدي أن تكون قادراً على قضاء ليلة أخرى دون عشاء ، ولكن أتساءل أين سننام الليلة ؟ !

سألت وبحزن :

– كنت سأنام عند غارفولي ؟

أجابني :

– أنت ستنام عنده ، واتفقت معه على إعطائي عشرين فرنكاً لتقضي الشتاء في خدمته ، وبذلك أستطيع استئجار ردهة أبات فيها ، لا يهم ولا يمكنني أن أتركك لهذا الرجل .. هيا إلى المسير !

– وأين سنذهب ؟

– إلى جنتيلي ، سنحاول الحصول على مهنة لنتمكن من النوم ، هل تستطيع المسير ؟

– لقد استرحت لدى غارفولي .

– المصيبة أنني لم أسترح لحظة واحدة ، ولست قادراً على السير ، المهم .. سنرى .. لنمش يا ولدي ..

كانت هذه طريقته اللطيفة للتحبب إلى الكلاب والتلطف معي ، ولكن نطقها هذه المرة بلهجة حزينة .

سألته بعد دقائق :

– هل أنت مريض ؟

فأجابني :

– أظنني مريضاً ، ولكنني منهك القوى حقاً . ولكنه سألني بعد برهة :

– هل ترى في مكان ما أجمة أشجار ؟

فقلت له :

- لا .

وأنا أحدق النظر فيما حولي .

- شيئاً يشبه الكتلة السوداء ؟ !

- لا شيء مطلقاً .

- يجب أن تكون هنا طريق واسعة لاستخراج الحجارة من المقالع قرب أجمة أشجار .

فلم أجبه . فتمتم فيتاليس :

- هل ضللت الطريق ؟ لنمش خمس دقائق أخرى ، فإذا لم نر شيئاً عدنا أدراجنا .

وشلت فكرة العودة قدمي ، ولم تعد لدي القوة على المسير .

ومشينا ربع ساعة مشياً غير منظم ، وكان فيتاليس منهك القوى يتوكأ علي وهو يلهث ، وفجأة قلت له :

- هناك نور من بعيد لعله بيت ؟

قال فيتاليس :

- لا يهم ، فهذا الريف لا يستضيف فلاحوه الغرباء .

ها نحن قرب باريس حيث يتحصن الناس في بيوتهم . بعد خمس دقائق ظننت أني ألمح شيئاً يشبه الشجرة ، فتركت يد فيتاليس وسبقته ، لقد كانت الشجرة سامقة يمر قرب جذعها درب تحيط به الأخاديد ،

وأخبرت فيتاليس فقال : لقد نجونا .. أعطني يدك فالمقلع على بعد خمس دقائق .



وأعاد لنا الأمل بعض قوانا على الرغم من البرد القارس الذي خدر أقدامنا ، وأسرعنا في مشينا . قال فيتاليس وهو يتوقف عن السير :

- هل ترى الأشجار ؟

- نعم هي على اليسار .

- والأخاديد ؟

- لا ، لا توجد أخاديد هنا .

فقال بصوت ذاهل وهو يمر بيده على عينيه :

– هل أنا أعمى ؟ فلنمش مباشرة إلى الأشجار ، أعطني يدك .

فقلت له :

– لا يمكن ، فهذا جدار .

– هل تحلم ؟ إنها كومة من الحجارة .

– أؤكد لك أنه جدار .

وكان التأكد منه سهلاً إذ كنا على بعد خطوات منه ، قال وهو يتلمس الجدار :

– نعم إنه جدار ، أين المدخل ؟ أبحث عن الأخاديد ولا أجد شيئاً سوى الثلوج .

فاقترحت عليه :

– لنبحث أبعد من ذلك .

وما زلنا كذلك حتى صادفنا قرية أو مجموعة من الجدران والمنازل وشيئاً يشبه الفانوس يضيء بنور ضعيف وهو يتدلى من سلسلة صدئة لها صرير ، توقف فيتاليس مستنداً إلى جدار ، فأدركت أنه منهك القوى فقلت له :

– هل أطرق أحد الأبواب ؟

– لا .. لا تفعل ، فهذه بيوت جامعي السباخ وهم لا ينهضون ليلاً .. لنمش .

وبعد خطوات استند إلى الجدار مرة أخرى .

– يجب أن أتوقف ، لم تعد لي قدرة على المسير .

كانت أمامنا عشّة من القصب بعثرت الرياح التبن أمامها ، فقال فيتاليس :

– لنجلس هنا فوق التبن .

فجمعت ما استطعت من التبن وجعلته كومة واحدة ، فانهار فوقها فيتاليس وقد أنهكه التعب ، همس لي :

– التصق بي ! وضم كابي إليك لينقل إليك شيئاً من الحرارة .

كان فيتاليس رجلاً مجرباً وهو يدرك الخطر من جلوسنا هكذا ، فقد لا ننهض أبداً ، ولكنه كان في غاية الإعياء .

جمعت ما وجدت من التبن حول قدمي والتصقت به ، فانحنى عليّ وقبلني للمرة الأخيرة .

الفصل الثالث عشر

ليز الصغيرة



استيقظت في سرير مريح في غرفة مجهولة تضيئها نار ملتهبة ، تحيط بي وجوه لا أعرفها ، رجل يرتدي سترة رمادية ، وثلاث فتيات أو أربع بينهنّ واحدة تكاد تنطق نظراتها .

وسألت : أين كابي ؟

– الكلب ؟ لقد مشى في جنازة سيده وهو ينوح حزناً ..

مات فيتاليس .. وبقيت في الدنيا وحد: ..

انتابني بعد موت معلمي حزن شديد . ولقد لمحت الفتاة الصغيرة حزني ، فكانت تدنو من والدها وتلمس ذراعه وهي تشير إليّ وتطلق زفرة لا تشبه الكلام ، فأدركت أنها خرساء وتركوني أستريح ..

ولكنني تحاملت على نفسي ولبست ثيابي وأنا أترنح ، إذ يجب أن ألقي النظرة الأخيرة على فيتاليس . حملت قيثارتي من تحت سريري

وغادرت الغرفة . كان هؤلاء الناس الطيبون يتناولون الطعام ، فنهضت الفتاة بهدوء وسكبت لي صحن حساء فلم أرفضه ، وشربته خلال لحظات ، فسكبوا لي صحناً آخر فشربته بشراهة أكبر من المرة الأولى ،

قال المزارع وهو يبتسم :

– إن لك شهية قوية يا ولدي ، ولعلك لم تتناول عشاءك منذ الأمس ؟

فأجبت بصوت خفيض :

– لا .. ولم أتناول الغداء أيضاً .

– وأين أهلك ؟

– لا أعرف أهلي ، وقد اشتراني معلمي من زوج مرضعتي ، اعذروني ، فقد كنتم في غاية الكرم معي ، وإني لأشكر لكم فضلكم ، ولكن يجب أن أرى فيتاليس وسأعود يوم الأحد وأعزف لكم على قيثارتي ، إذا كنتم تحبون ذلك ..

ما كدت أخطو بضع خطوات حتى تبعتني ليز الصغيرة وأمسكت بيدي وأشارت إلى القيثارة بيدها الأخرى وهي تبتسم ، فقلت لها :

– تريدين أن أعزف لك ؟ أليس كذلك ؟

قال الأب :

– حسناً اعزف لنا شيئاً قبل رحيلك .

جلست وضبطت أوتار قيثارتي ، ثم عزفت " الفالس " الذي أتقنه ، ولم يطاوعني قلبي على الرقص أو الغناء ، ولكني أردت أن أدخل السرور على قلوب هؤلاء الناس الكرماء .

قال الأب فجأة وأنا أمسك حمالة قيثارتي :

– وهل أنت فعلاً متعلق بمهنة الموسيقي الجوال ؟

فأجبت :

– لا أعرف مهنة سواها .

– لماذا لا تبقى معنا ؟ سيكون لك مكان تنام فيه ونار تتدفأ بها ، وعمل تعيش منه طبعاً ، واعلم أنني لا أعرض عليك حياة الخمول ، فسوف تنهض باكراً وتبذل جهدك في فلاحة الأرض .

أذهلني هذا الاقتراح : أتكون لي عائلة ؟ ! وأسندت قيثارتي إلى الأرض ، فقال الأب مبتسماً :

– حسناً .. هذا جوابك ، وهو جواب صائب ، قلبي يحدثني أنك ولد طيب ، علق قيثارتك على هذا المسمار يا ولدي ، وحين يطيب لك استئناف حياة التجوال تستطيع إنزالها .

فقلت :

– لن أخرج سوى مرة واحدة أرى فيها فيتاليس .

– هذا قول صائب .

كان البيت الذي هاوينا أمامه أنا وفيتاليس يقع في منطقة جنوب باريس ، ويملكه مزارع يدعى " أكوين " وقد توفيت زوجته بعد زمن قليل من ولادة " ليز " ولم تولد " ليز " خرساء فقد بدأت تنطق بعض الكلمات ثم أصيبت بمرض يسمى " الاختلاج " ، فأصبحت خرساء ولا يزال شفاؤها ممكناً ، ويعتقد الأطباء أن النطق قد يعود إليها يوماً إذا أصيبت بصدمة عصبية ، أو تعرضت لانفعال شديد .

أما الآن فإن الأخت الكبرى " إتانت " وهي تكبر أخاها " ألكس " بعامين ، قد غدت أم هذه العائلة ، فكانت وهي في الرابعة عشرة من عمرها تقوم على تدبير المنـــزل ، فتطبخ وتنظف وترفو الثياب ، لذلك سيطر الحزن على ملامحها ، إذ لم يكن لديها متسع من الوقت للضحك واللعب أو الذهاب إلى المدرسة .

لم أعرف هذا إلا بعد زمن طويل . وأما الآن فإني أسمع ضجة هائلة في الباب ونباحاً أليفاً لدي وهتفت :

– كابي .. كابي .. إنه كابي .

واندفعت نحو الباب ولكن ليز الصغيرة سبقتي إليه ، ودخل كابي إلى الحجرة بسرعة البرق مبللاً وسخاً ، وارتمى عليَّ تعبيراً عن صداقته الراسخة .

وسألت الأب خجلاً :

– ماذا أفعل بكابي ؟

فقال الأب " أكوين " ضاحكاً :

– سيبقى كابي معك أيضاً .

وكأنما فهم كابي ما قاله الأب فوقف على قائمتيه الخلفيتين وجعل قائمته اليمنى على قلبه وانحنى باحترام ، وضجت العائلة كلها بالضحك .

قال الأب ضاحكاً :

– حسناً .. لن نشعر معكما بالسأم ، ولكن لنمض إلى الشرطة أولاً لنعرف أين وضعوا جثمان فيتاليس ، وقد قيل لي إنهم يريدون استجوابك لمزيد من التفاصيل .

ذهبنا إلى المخفر حيث تقاطرت عليّ الأسئلة فكنت أجيب بما أعلم ، ومهما يكن الأمر فقد استطاع الشرطي أن يستدرج طفلاً مثلي إلى الحديث عن السر الذي هدد غارفولي بإفشائه .

أخيراً قال ضابط الشرطة :

– حسناً ما عليكم سوى أخذه إلى بيت غارفولي .

وانطلقنا نحن الثلاثة الشرطي والأب أكوين وأنا

وحين رآني غارفولي بالباب وبصحبتي شرطي اصفر رعباً ، وقال :

– إذاً مات الشيخ البائس .

– وهل تعرفه ؟

– بالتأكيد .

– احكِ لي عنه .

– آه .. هذا أمر يسير ، ليس اسمه الحقيقي فيتاليس ، بل هو كان " كارلو بلزاني " ، ولو كنت إيطالياً لما خفي عليك ، فقد كان منذ ثلاثين أو أربعين سنة أعظم مغني أوبرا عرفته إيطاليا منذ وقت طويل ، فقد اجتاحت شهرته كل المسارح الكبرى لا في إيطاليا فحسب بل في أوربا كلها ، ولكنه فقد صوته لسوء الحظ ، وتدنى غناؤه ، ولكنه لم يتنازل عن كبريائه ، وكان يفضل الموت على أن يعرف الناس أن " كارلو بلزاني " الشهير قد غدا فيتاليس البائس . هذه هي حكايته وقد اطلعتُ عليها عن طريق المصادفة .

هذا هو إذن السر الذي كان يخفيه فيتاليس ..

يا لبؤسك يا كارلو بلزاني أو سيدي فيتاليس الرائع !

لم أستطع حضور جنازته إذ انتابتني حمى شديدة تلك الليلة وأصبت بالتهاب رؤي ، واعتنى بي آل أكوين حتى بكيتِ من شدة التأثر ، ولم يشأ الأب أكوين أن أنقل إلى المستشفى فقد تعهد أمام الشرطة بأن يتكفل بي وأن أعالج في بيته .

وكانت " إتانت " رائعة معي ، وحينما أصبحت قادراً على السير رافقتني " ليز " في نزهة على ضفاف نهر " بيافر " ، وهو نهر صغير يسير عبر الحقول ثم يصب في نهر السين .

ومع مرور الوقت عادت إلي قوتي وبدأت أتدرب على أعمال البستنة ، وكنت أنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر لأني حريص على أن أرد لهؤلاء الناس الطيبين ما أسدوه إلي من معروف .

وكانت الحياة هانئة ، يوم الأحد نجتمع تحت عريشة في البستان وأعزف على قيثارتي ، ويرقص الأولاد والبنات ويغنون ..

وبعد نهاية أغنيتي الإيطالية تغرق عينا ليز بالدموع .

كلما تقدم بي العمر زاد احترامي لذكرى فيتاليس وأدركت قيمته بالنسبة لي ، وبقيت عامين على هذه الحال .

كنت أتعلم من الكتب التي يملكها الأب أكوين ، ولم يكن جاهلاً إذ كان موظفاً في مصلحة المشاتل والنباتات قبل أن يستقل بعمله الخاص .

فأقرأ على ليز بصوت مرتفع ، مثلما كان فيتاليس يقرأ لي ، ولم أكن معلماً ممتازاً ، ولكن بعد جهود شاقة استطاعت ليز أن تكتب بعض الحروف وتجمعها في كلمات مفهومة .

وكنا نحضّر الآلاف من شتلات الزنابق والقرنفل في آن واحد ويقتضي منا ذلك العمل الدائب والموهبة الأكيدة ، وكان أكوين يفرك كفيه وهو يقول :

– سيكون الموسم جيداً هذه السنة !

في الخامس من آب كانت أزهارنا كلها جاهزة ، ولكي يكافئنا الأب أكوين أخذنا معه إلى مدينة " أوكوي " لقضاء النهار لدى أحد أصدقائه من المزارعين ، كان وقتاً ممتعاً وغداءً لذيذاً امتد إلى وقت متأخر ، وفجأة رفع الأب أكوين أنفه إلى السماء وقال :

– هذه غيوم كثيفة سوداء تتدافع نحو الجنوب ، في الجو عاصفة ..

وا أسفاه .. لقد فاجأتنا العاصفة ! وكانت العاصفة من حبات البَرَد ، حين وصلنا كانت الكارثة قد حلت بالمشاتل ، فلم تترك لوح زجاج واحداً ، وتحطمت الأزهار والنباتات ! .

يا له من دمار لم يترك للأب أكوين شيئاً ، ومما زاد الحالة سوءاً أن الأب أكوين كان قد اشترى البستان منذ عشر سنوات وبنى فيه بيتاً وتعهد لمن باعه الأرض والمواد اللازمة للزراعة أن يسدد له ثمنها على أقساط لمدة خمسة عشر عاماً .

وكان ذلك الرجل يتوقع أن يعجز الأب أكوين عن تسديد الأقساط ، فيصادر له بيته وأرضه ، وقد حدث ما توقعه .

حاول الأب أكوين الحصول على فترة إضافية ، ورفع قضيته أمام المحاكم ، ولكنه عاد ذات يوم منهار القوى فقد خسر القضية ، ولم يكن ما يملكه كافياً لتسديد ديونه ، فحكم عليه بخمس سنوات سجناً وفاءً لها ..

قال الأب بصوت حزين :

– إليكم ما عزمت عليه ، سيكتب ريمي إلى أختي كاترين يطلب منها الحضور إلينا ، وهي امرأة عاقلة مدبرة وسوف تشير علينا بما نفعله .

قدمت العمة كاترين من باريس ، ولكن قبل وصولها جاءت الشرطة القضائية فاقتادت الأب أكوين إلى السجن وتركتنا في حال يرثى لها .

تسلمت العمة كاترين زمام الأمور وقررت أن تأخذ ليز معها إلى منطقة " المورفان " ، وأرسلت ألكس إلى عمه العامل في منجم من منطقة " السيفان " ، وأرسلت بنجامين إلى عمه الثاني ، وهو بستاني في منطقة " سان كونتان " ، وأرسلت " ايتانت " إلى خالتها في منطقة " ايسناند " قرب شاطئ البحر ، ولم تشغل العمة نفسها بي .

سألها الأولاد :

– وريمي ؟ أليس من أفراد العائلة ؟

فلم تصغ العمة كاترين إلى توسلاتهم ، فلم تكن تعدّني من أفراد العائلة ، وليس من واجبها أن تتكفّل بي ، ولكن ماذا سيحل بي بعد رحيل إخوتي ؟ ليز وإتانت وبنجامين وألكس ؟

قلت لهم :

– أصغوا إليّ ، سآخذ قيثارتي وفروتي لأني لم أنس بعد أغانيّ وألحاني ، وسأكسب بها لقمة العيش ، ولن أنسى المرور على المقاطعات التي تعيشون فيها أثناء تجوالي ، وسأنقل لكم أخباري .

واتفق الجميع على أن هذه الفكرة حسنة .

ثم انطلقت بهم العربة إلى الطريق وبقيت وحيداً مع قيثارتي وكلبي كابي ..

الفصل الرابع عشر

إلى الأمام

نعم كانت الدنيا ممتدة على سعتها أمامي أتخذ الوجهة التي أبتغيها ، سواء كانت شمالاً أو جنوباً ، شرقاً أو غرباً ، ولكن قبل أن أنطلق عبر مقاطعات فرنسا كان أمامي واجب لا بد من قضائه وهو وداع الأب أكوين ، ولا أستطيع المرور من باريس وكلبي يتبعني ، فقد كنت خائفاً من رجال الشرطة ، لذلك وضعت حبلاً في رقبته - برغم أن هذا يجرح كرامته - ومشيت عبر باريس لأصل إلى سجن كليشي .

كان الانتظار طويلاً وتعبت حتى حصلت على إذن بزيارته ، وأخيراً رأيت الرجل البائس ، ولا أذكر لشدة انفعالي ما قلته له سوى أني وعدته بأن أكون الواسطة التي تجمع بين أفراد عائلته ، أنقل أخبار بعضهم إلى بعض ، فكان سروره شديداً ، ولم يكن يعلم ما حلّ بأفراد عائلته قبل زيارتي له .

وأهداني ساعته ، تلك الساعة الفضية الكبيرة وقال لي :

- لا حاجة لي بها هنا ، فما الفائدة من عد الساعات إذا كنتَ ستعدها مدة خمس سنوات طوال ؟

وافترقنا باكيين ، ودعا لي بالتوفيق ، يا لبؤسك أيها الأب أكوين ، قد دخلت السجن بسبب العاصفة .

إلى أين أمضي الآن ؟ ! .

يجب الخروج من باريس ، وكنت أمام خيارين : إما أن أتوجه إلى " فونتين بلو " أو إلى " مونتروغ " ، فاتخذت وجهة الشارع الأول ، وساقتني الأقدار إلى كنيسة " سان ميدار " ، فرأيت بقرب أحد أعمدتها شخصاً ضئيلاً لم يكن غريباً عني فتأملته : أليس هذا " ماتيا " الصغير ؟ بلى ! .

إنه ماتيا برأسه الضخم وعينيه الواسعتين ومظهره الوديع .

وبدا لي أكبر مما عهدته بعد مرور هاتين السنتين ، دنوت منه ، إنه هو ولا ريب . وسرعان ما عرفني وابتسم لي :

- أنت الذي جاء إلى بيت غارفولي بصحبة شيخ أشيب الشعر ؟

- أنا هو .. وأنت ماتيا ؟

- نعم ماتيا ، كان رأسي يؤلمني ذلك اليوم .

فأطرق برأسه وألقى نظرة سريعة على ما حوله وقال بصوت خفيض :

– غارفولي في السجن ، فقد مات أحد رفاقنا تحت ضرباته وقبضت عليه الشرطة ولم أكن حاضراً لأني حين خرجت من المستشفى ، لم يقبلني خالي في بيته ، وادعى أني أكلفه كثيراً ، ثم باعني إلى سيرك غاسو .

فانطلقت إلى خباز مجاور ، فاشتريت رغيفاً وعدت مسرعاً ، فأعطيت لماتيا نصفه ولم ينتظر دعوتي ليلتهمه التهاماً .

وقال وفمه ملآن :

– إنه لذيذ .

– ماذا سنفعل الآن ؟

فقال :

– لا أدري ، فكرت أن أبيع كمنجتي قبل وصولك . وهي تساوي بضعة قروش ، ولكنها غالية علي ، وهي سلواي في أحزاني وحين أشعر بالكآبة أمضي إلى مكان هادئ وأعزف حتى أخفف أحزاني وأصنع لنفسي حلماً جميلاً .

– ولم لا تعزف في الطرقات ؟

– حاولت ذلك ، ولكن لم يتصدق علي أحد بقرش ، وأنت ماذا تفعل الآن ؟

قلت بلهجة جادة وقد سيطرت علي كبرياء الطفولة :

– إني رئيس فرقة .

فأطلق ماتيا صفير إعجاب وقال بلهجة متواضعة :

– وهل ترغب أن ..

فقلت بصدق :

– إن فرقتي كلها ليست سوى .. كلبي كابي وأنا وقيثارتي .

– وإذا انضممت إليكم صرنا أربعة ، والأربعة فرقة حقيقية ، وأنا أجيد العزف على الكمنجة وأمشي على الحبل وأمر على قضبان الكراسي .. وقبلت فوراً وقلت له :

– لننطلق إذاً .. والعمل يكون أحسن إذا أنجزناه معاً ، ولكنك ستكون رفيقي لا خادمي ، ومع ذلك فأنا رئيس الفرقة .

وتذكرت فيتاليس عندما أطلق صيحته :

– إلى الأمام يا أولاد .

بصبص كابي بذيله ، وسرعان ما غادرنا باريس .

كنت أفكر أثناء سيرنا بالوجهة التي سنتخذها ، لقد وعدت إخوتي وأخواتي أن أزورهم الواحد تلو الآخر .

كما أن لدي سبباً يدفعني إلى الجنوب ، إنه الأم باربرن .

باختصار جعلت أرسم خطط أحلامي ، وبدأت بشراء خريطة كاملة لفرنسا مرسوم عليها المقاطعات والطرقات مطبوعة على القماش بحيث لا تتمزق لطول الاستعمال .

بسطت الخريطة على الأرض وماتيا وكابي ينظران إليّ بإعجاب ، وترددت في اختيار الطريق ، ثم قررت التوجه إلى المنطقة التي تقع فيها قرية " شافانون " حيث تقيم الأم باربرن وستكون أول زيارتي لها .

أفرغت حقيبتي وقمت بجرد محتوياتها ، فوجدت فيها ثلاثة قمصان وثلاثة جوارب وخمسة مناديل ، وهي كلها في حالة جيدة ، ووجدت حذاء احتياطياً مهترئاً قليلاً ، وسألت ماتيا :

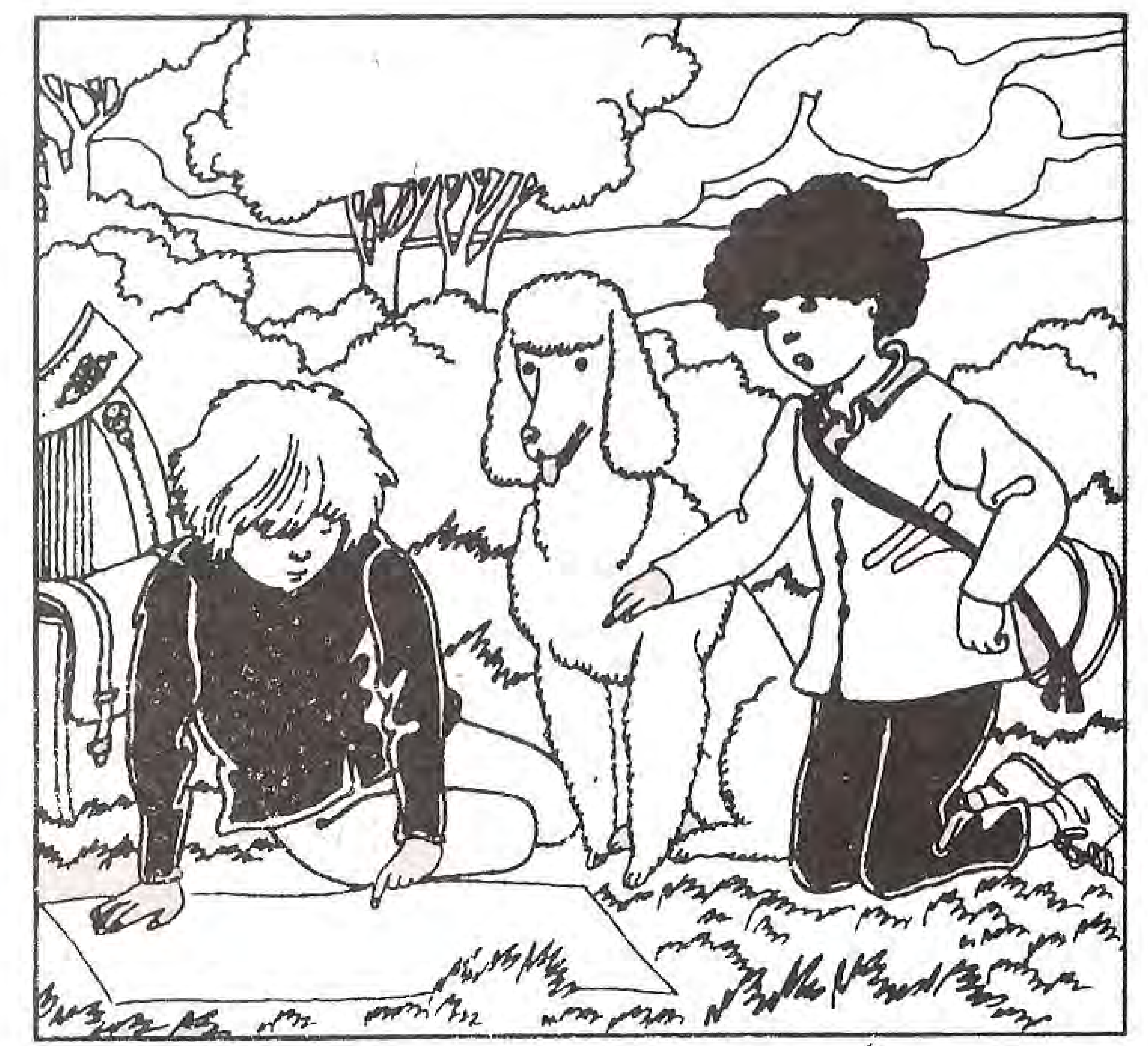
– وأنت ماذا لديك ؟

فأجاب بصوت حزين :

– كمنجتي وما عليّ من ثياب.

فقلت :

– إذن سنقسم كما يفعل الأصحاب .. ولا تصح القسمة إلا إذا حملت الحقيبة ساعة وحملتها أنا ساعة أخرى .



جادلني قليلاً ماتيا ثم رضي ، وقد طابت لي فكرة إصدار الأوامر .

وضعت الوردة التي أهدتها ليز لي في علبة صغيرة ، وأخفيتها داخل الملابس .

قلت لماتيا :

– أسمعني كيف تعزف على الكمجة .

لم يتردد ماتيا فأخرج كمنجته وقوسه وباشر العزف .

ودهشت إذ كان ماتيا يضارع فيتاليس في جودة عزفه ، فسألته وأنا منذهل :

– من علّمك العزف ؟

– تعلمته بالسماع ومن الأصدقاء .

– أستطيع تعليمك قراءة النوته إذا شئت .

– يا ألله .. أنت عالم بكل شيء .

– هذا واجبي لأني رئيس الفرقة .

لا يمكنك أن تكون فناناً إذا لم تولع بالموسيقا ، فتناولت قيثارتي لأبرهن لماتيا أني فنان كبير .

وبدأت عزف إحدى الأغاني الإيطالية ، وكما يحدث بين كبار الفنانين فقد هنأني ماتيا على موهبتي ورددت له التهاني بأحسن منها ، فأنا موهوب وهو موهوب .. ولكن كيف نحصل على العشاء ؟ ..

قال ماتيا :

– علمني هذه الأغنية الإيطالية وأنا أرافقك بالعزف على الكمنجة .

وكانت فكرة حسنة ووعدته بأن ننفذها ، وعلينا الآن أن نجد قرية مناسبة لتقديم استعراضنا فيها .. فمررنا بقرية تمتد أمام إحدى مزارعها

باحة واسعة غاصة بالناس وقد زينوها بالأشرطة والأعلام ، لقد كان عرساً وخطر لي في الحال أنهم سيحتاجون إلى الموسيقا .

عرضت الأمر على شاب سمين تحيط بوجهه الأحمر ياقة بيضاء ، ولم يجب بل التفت إلى أصحابه وقال بصوت كالرعد :

– يا شباب .. لقد وصل الموسيقيون .. فما رأيكم برقصة ؟

رحبوا باقتراحه وكادت الفرحة تعصف بنا أنا وماتيا .

سرعان ما جاؤوا بعربة وثبّتوا عجلاتها ، فصعدنا إليها وهتف الناس من كل جانب : " الرقصة الرباعية " .

سألت ماتيا وأنا شديد الرهبة :

– هل تعرف لحن هذه الرقصة ؟

– طبعاً أعرفه .

وضبط لحنها على كمنجته ، فكانت إحدى القطع التي أُتقنها أيضاً .

لعلّ عزفنا لم يكن في غاية الكمال ، لكنّ جمهورنا لحسن الحظ لم يكن عارفاً بالموسيقا ، سألنا الشاب السمين فجأة :

– هل يجيد أحدكما العزف على البوق ؟

– نعم ، ولكن ليس معي بوق .

– لا تهتم .. سآتيك بواحد .

وسألت ماتيا باهتمام :

– وهل تجيد عزف البوق ؟

فقال بثقة تامة :

– البوق والمزدوج والمزمار .. وما شئت من الآلات .

الحق أن ماتيا هذا ثروة نفيسة .

حين حلّ الظلام كنا منهكين من العزف ، وخاصة ماتيا الذي أبدع في العزف على البوق ، وقام كابي بجمع الغلة ، فكانت مبلغاً هاماً إذ انهمرت القطع الفضية في القبعة انهمار المطر ، ولم تقف الأمور عند هذا الحد ، فقد تعشينا وأفسحوا لنا مكاناً في المزرعة ننام فيه .

لقد أوحت لي هذه الحالة من اليسر أفكاراً جديدة ، وكان في عزمي أن أرى الأم باربرن أولاً ، ولكن الاكتفاء بتحيتها فقط أمر يدل على المهانة ، ولا بد من تقديم هدية لها ، ولكن أي هدية ؟

لتكن بقرة تعوض لها " روسيت " ، وكم ثمن البقرة ؟

لقد تحمس ماتيا لهذه الفكرة وبدأت أستعلم لتحقيقها ، وحين سنحت لي أول فرصة سألت أحد البقّارة الذي تبدو عليه ملامح الأمانة .

لقد شرع بالاستهزاء بي وسألني إن كنت سأدرب هذه البقرة على الرقص ، وأخيراً عرض علي بقرة زعم أنها أفضل الأبقار . فهي لا تأكل

شيئاً تقريباً وتدرّ عدة سطول من الحليب يومياً ، وهي هادئة الطبع ، وتساءلت عن السبب الذي جعله يتخلى عن ثامن عجائب الدنيا ، وقبلت عرضه ولكني علمت أن البقرة تساوي مائتي فرنك ! ولكن إذا استمرت حالنا على ما هي عليه من الازدهار واقتصدنا في المصروف ، فمن الممكن شراؤها ، والمسألة قضية وقت .

وخطرت لي فكرة ، فبدلاً من أن أمضي مباشرة إلى " شافانون " أمر أولاً على ألكس في منطقة السيفان ، مما يتيح لي الفرصة لتوفير المائتي فرنك الباقية .

ووافق ماتيا على هذه الخطة وقال :

– لنذهب إلى السيفان ، وقد تكون رؤية المناجم ممتعة ، وأنا متشوق لرؤية أحدها .

الفصل الخامس عشر

حلاق مدينة ماند

إلى الأمام ! قيثارتي بيدي وحقيبتي على ظهري وأمامنا الطرق الواسعة ، ومعنا كابي المرح الذي يتدحرج في الغبار .

عزمت أنا وماتيا على أن نتوجه إلى أوسل مباشرة ثم إلى " كلير مون " وبذلك نقترب من " شافنون " ، ويتيح لنا هذا أن نقدم استعراضاتنا في المدن المعروفة بمياهها المعدنية .

وكلما حصلنا على مال أكثر كانت بقرة الأم باربرن أجمل . وتخيلت أنها تشبه بقرة خرافية لذلك دعوتها " بقرة الأمير " .

سئمت من تعليم ماتيا الموسيقا لا لأنه يرفضها ، بل لأنه يعرف ما أعرفه من معلومات عنها ، وأراد أن يمضي بعيداً ، فكان يطرح علي أسئلة محرجة مثل قوله :

– لماذا نضبط الكمنجة على بعض الألحان ولا نضبطها على سواها ؟

فماذا تريدني أن أجيبه وأنا لا أعرف الجواب ؟ وقد تخلصت من هذا الإحراج بأن زعمت له أن الكمنجة ليست آلتي المفضلة ، ولكن هذا المنفذ لا فائدة منه حين يطرح علي ماتيا أسئلة حول نغمة " البيمول " و" الدييز " فأجيب بما أقدر عليه . وعادة لا يغضب ماتيا مني ولكنه يرميني بنظرات تجعلني أحس بالتعاسة .

فقلت في نفسي : من الممكن أن نشتري كتاباً رخيص الثمن نجد فيه المبادئ الأساسية للموسيقا وما رأيك ؟

وكانت نظرته توحي بقلقه ، وقد أقنعني كلامه ، فقلت له :

– أظن أن الأستاذ الماهر خير من الكتب جميعها ، وما يلزمك هو التتلمذ على يد موسيقيّ حقيقيّ ..

ولا ريب أني أستحق التهنئة على قولي هذا ، فليس سهلاً على المرء أن يعترف بجهله ، ولكن ابتسامة ماتيا الواسعة طيّبتْ خاطري .

– لا أجرؤ على مفاتحتك بهذا الموضوع ، وحين نصل إلى مدينة " ماند " سنتعلم منه .

فقلت وأنا أتحسر :

– فكرة جيدة .

ثم أضاف بشهامة :

– وهكذا أستطيع ان أستكمل ما ينقصني .

في اليوم التالي وصلنا إلى " ماند " ، وقد حلّ الظلام ونال منا الإعياء ، ولم يشأ ماتيا أن ينام قبل أن يسأل صاحبة الفندق عما إذا كان في المدينة أستاذ للموسيقا .

كانت صاحبة الفندق امرأة جهمة سمينة ، ضحوكاً تفحصتنا بفضول قبل أن تسألنا :

– ألم تسمعا أبداً بالسيد " اسبيناسو " ؟

فقلت لها على سبيل الاعتذار :

– جئنا من مكان بعيد .

– من بعيد فعلاً ؟

فقال ماتيا وهو يبتسم :

– من إيطاليا .

ومع ذلك فقد داخلني الشك في أن يقبل أستاذ بمثل هذه الشهرة أن يعطي دروساً لمتشردين بائسين مثلنا ، وسألتها :

– لا ريب أن الأستاذ " اسبيناسو " مشغول جداً .

فأجابت المرأة :

– نعم بالتأكيد ، فحانوته لا يخلو من الناس .

– لعله لا يقبل أي إنسان كان .

– ولِمَ لا ؟ إنه يقبل أي إنسان ما دام يملك النقود .

في الغد اتخذنا طريقنا إليه ، ماتيا يحمل كمنجته وأنا أحمل قيثارتي ، وتوجهنا إلى العنوان المذكور ، فوصلنا أمام حانوت حلاق .

قال لي ماتيا :

– غريب أن يسكن موسيقيّ لدى حلاق .. ولكن ما يهمنا .. لندخل .

ودخلنا . كان الحانوت عجيباً ، فبالإضافة إلى الأدوات التي تجدها لدى الحلاق عادة كالأمشاط والفراشي وقناني العطر والمسنّ الجلدي ، تجد الجدران مغطاة بعدد كبير من آلات الموسيقا . كان الحلاق المشغول بلحية فلاح ثري سمين ، رجلاً طويل القامة كثير الحركة ، ينتقل كالعصفور ، فأشار إلينا بالجلوس فقلت له :

– المعذرة نريد رؤية السيد " اسبيناسو " .

فأجاب الحلاق بصوت رخيم :

– أنا هو .

وتبادلنا نظرات الدهشة ، وبدلاً من أن يفهم ماتيا معنى غمزتي أنْ : لنذهب فليس هو الرجل المطلوب ، فإنه مشى متبختراً إلى الكرسي وجلس عليه وقال بصوت مرتفع :

– هل تستطيع قص شعري بعد انتهائك من هذا السيد .

فأجاب السيد " اسبيناسو " بلهجة ساخرة :

– بالتأكيد ، وإذا شئت يا شاب فإني أقلم لك شاربيك مجاناً .

فقال ماتيا ضاحكاً :

– شكراً ، ولكن في المرة القادمة حين أعود إليك .

لم أفهم شيئاً مما يفعله ماتيا ، ولكني أعجبت بجرأه ماتيا .

حينما انتهى الحلاق من زبونه وأجلس ماتيا على الكرسي وعقد المنشفة حول عنقه ، قال ماتيا بكل ثقة :

– يا سيدي ، لقد اختلفت مع صديقي حول موضوع يتعلق بالموسيقا ، وبما أنك موسيقي مشهور ، ظننت أنك قد تفيدنا فيما اختلفنا حوله .

– وما موضوع الخلاف بين هذين الشابين ؟

هناك بلغ بي الإعجاب بماتيا أقصاه ، فقد اختبر الموسيقي الشهير وأخذ منه درساً في الموسيقا ودفع له ثمن الحلاقة فقط . قال ماتيا :

– الموضوع يا سيدي الكريم أننا نريد أن نعرف لماذا تضبط أوتار الكمنجة على بعض النغمات دون بعض ؟

قال الموسيقي الحلاق وهو يقص خصلة من شعر ماتيا :

– سأشرح لك هذا الموضوع بحيث لا تحتاج إلى سؤال أحد بعدي .

وما زال الموسيقي الحلاق يشرح وماتيا يطرح عليه سؤالاً بعد آخر حتى تفطن إليه أخيراً فقال بعبارة لطيفة :

– هل تسمح لي أن أسألك ، إن كنت جئت لتقص شعرك أم لأخذ دورة كاملة في النظرية الموسيقية ؟

وبحث في الأدراج مدة طويلة ثم وجد كتيباً عنوانه " نظرية الموسيقا " ، وكان كتاباً صغيراً قديماً ممزقاً ، قدّمه إلى ماتيا بعد أن كتب على الصفحة الأولى :

" إلى الطفل الذي سيغدو فناناً ويتذكر حلاق ماند "

ولا أعرف ما فعل الزمان بذلك الرجل ، ولكننا لم ننسه أبداً .

الفصل السادس عشر

بقرة الأمير



وصلنا أخيراً إلى منطقة المياه المعدنية ، فجمعنا غلة وفيرة ، والفضل يعود في ذلك إلى ماتيا الذي تخرج من مدرسة غارفولي ، وتعلم منها كل الحيل التي تدفع الناس إلى أن يمدّوا أيديهم إلى جيوبهم ، كان يحلل نفسية كل واحد بدقة من طريقة مشيته أو ملبسه .

فإذا رأى شابة أنيقة حزينة حكم حالاً بأنها أرملة ينبغي أن يُعزف لها الألحان المؤسية المتهالكة ، وكان ماتيا يحرز النجاح لدى الأطفال ، ولم أعرف أبداً كيف يفعل ذلك .

ولكن الأمور كما ذكرت ، إنه يمتع الناس ويحبونه .

كانت نتيجة حملتنا رائعة : معنا ثمانية وستون فرنكاً بعد طرح المصاريف ، وسيكون لدينا قريباً مائتان وأربعة عشر فرنكاً ، فنفكر في شراء البقرة بشكل جدي .

وعزمنا على التوجه دون إبطاء إلى أوسل حيث يقام كما قيل لنا سوق للدواب .

هناك طرأت لنا أفكار جديدة ، فكان ماتيا يريد بقرة بيضاء ، وأريدها أنا شقراء تذكاراً لروسيت البائسة ، وكيف نختارها ؟ ! فلا نعلم شيئاً عن الأبقار ، ونخشى أن يسرقنا الباعة ، ولكم سمعنا حكايات من هذا القبيل !

فهذا فلاح اشترى بقرة فخمة كبيرة الضرع ، وما إن يعود إلى بيته حتى يتبين أن ضرعها منفوخ ، ولا تدرّ حتى كأسين من الحليب في اليوم ، وهذا آخر يجر البقرة من ذيلها فينقطع ، لقد غشه البائع وركّب لها ذيلاً . وقد أقلقت هذه الخديعة الأخيرة ماتيا حتى لقد عزم على أن يشدّ بكل عزمه أذناب الأبقار التي يصادفها في السوق .

وقد وجدنا طريقة أسهل من أن نغرس دبوساً في ضرع البقرة قبل شرائها لنتأكد من أنها ليست " منفوخة الضرع " وهي أن نتوجه إلى البيطري .

ستكلفنا الاستشارة شيئاً من المال بلا شك ، ولكننا لن نتعامل مع النصّابين مباشرة .

بعد يومين من السير وصلنا إلى أوسل ، ودخلنا باكراً . نظرت إلى البلدة وقد تحركت عواطفي ، ألم أبدأ هنا مسرحية " خادم السيد طيب القلب " ؟

يا للقرد المسكين ! يا فيتاليس البائس ! لم يبق من هؤلاء الستة سوى كابي وأنا ..

لم نجد صعوبة في الحصول على عنوان البيطري ، واندهش الرجل من فكرتنا ، قال لنا ضاحكاً :

– لا توجد أبقار مدرّبة في هذه المنطقة .

فشرحت له الهدف من شرائنا البقرة ، فقال لنا وهو يبتسم :

– أنتما ولدان طيبان ، حسناً سأصحبكما غداً إلى السوق ، وأعدكما بألا يكون ذيل بقرتكما ملصوقاً .

– ولا ضرعها منفوخاً .

– ولا ضرعها منفوخاً ، ولكن للحصول على بقرة جيدة ، لا بد من دفع ثمنها كما تعلمان .

– بالتأكيد ، ومعنا المال ، ولكن كم سندفع لك أنت ؟

– لا شيء ، وسيؤنبني ضميري إذا أخذت مالاً من ولدين طيبين مثلكما .

ولم أدر كيف أشكر هذا الرجل الشهم ، وسأله ماتيا فجأة :

– هل تحب الموسيقا يا سيدي ؟

– كثيراً يا ولدي .

– فهل يمكنني أن أسألك في أي ساعة تنام ؟

فنظر البيطري إلى ماتيا مذهولاً ، ولكنه أجاب دون أن يغضب بأنه ينام الساعة التاسعة .

– شكراً يا سيدي ، موعدنا غداً على الساعة السابعة .

لقد فهمت معنى هذه الأسئلة التي يطرحها شريكي ، سيشكر هذا الرجل الشهم بأن يعزف له تحت نافذته قبل النوم .

وقد فعلنا ذلك ، ولكن البيطري أدخلنا إلى حديقته وشرح لنا وهو يشكرنا أنه إن كان يحب الموسيقا ، فإن كثيراً من الناس لا يحبونها ساعة النوم ، ويخشى أن يقبض علينا شرطي بتهمة إقلاق الراحة .

من الغد كنا في الموعد . كان الفندق مزدحماً بالعربات المحملة بالفلاحين القادمين إلى السوق ، وطرقات أوسل يتجاوب فيها خوار الأبقار ، وترى الأبقار والثيران في كل مكان ، وكنا ننتقل من بقرة إلى أخرى نبحث عن ضالتنا كما يفعل الخبراء . مما أدخل البهجة على قلب صديقنا البيطري ، ثم وقع اختياره على بقرة مناسبة لنا .

وتكفل بمساومة البائع الذي طلب ثلاثمائة فرنك ، ولكن البيطري ما زال ينتقص البقرة ويذكر عيوبها حتى كرهنا هذه البقرة البائسة ،

وقد حسبناه جاداً في قوله ، ثم اشتراها منه بمائتي فرنك ، ودفعنا بعض الرسوم هنا وهناك حتى لم يبق معنا سوى عشرين قرشاً ، ولكن المهم أننا اشترينا بقرة برسنها .

قال ماتيا بحماسة :

– حسناً لا بأس علينا ، المقاهي عامرة بالناس وسوف نعمل لشراء عشائنا .

سقنا البقرة فخورين إلى الفندق وأودعناها في الإصطبل ، ثم افترقنا لنعزف الموسيقا في الطرقات ، وربحنا ذلك المساء سبع فرنكات .

من الصباح كنا نحس بالفخر وكأننا نملك الدنيا ، فاتخذنا طريقنا إلى " شافنون " ولم نكن بعيدين عنها .

لم أعد بحاجة إلى النظر في الخريطة فأنا خبير بالمنطقة ، ولكن خشينا أن تتعب بقرتنا التي تمشي بخطوات العروس ، قررت أن نستريح في القرية التي تسبق " شافنون " حيث أمضيت أول ليلة مع فيتاليس .

هنالك بدأت متاعبنا .. وقد عزمنا على أن نقسم النهار إلى شطرين يتخللهما الغداء – ونعني به غداء البقرة من عشب الحقول – كانت بقرتنا تسرح على راحتها وتأكل ببطء شديد ، فانتهزنا هذه الفرصة ولعبنا " بالدُّحل " فقد كنا نتصرف بين الناس كالرجال ونحن في أعماقنا ما نزال أطفالاً نحب اللهو واللعب .

كانت البقرة تأكل ولا يبدو عليها أنها مستعدة للتوقف لحظة واحدة .

قال لي ماتيا فجأة :

– ما رأيك لو عزفت للبقرة لحناً بهذا البوق ؟ كان عندنا في سيرك " غاسو " بقرة مولعة بالموسيقا .

ودون أن ينتظر جوابي شرع ماتيا في عزف لحن احتفاليّ ، فرفعت البقرة رأسها مذعورة ، وقبل أن أتمكن من الإمساك برسنها جرت هاربة لا تلوي على شيء !

فحملنا حقائبنا وجرينا وراءها ونحن نصيح .

لقد وصلت البقرة إلى القرية قبلنا طبعاً ، وحاول الناس الإمساك بها في دروب القرية الضيقة ، فكانت تنفلت منهم ، ولكنهم أبطؤوا من جريها فلحقنا بها دون عناء شديد .

كان حولها عشرون فلاحاً تقريباً يتصايحون وهم ينتظرون قدومنا . فتقدمت مبتسماً لأمسك ببقرتي ، ولكن الناس لم يكونوا يبتسمون على الإطلاق وانهمرت علينا أسئلتهم :

– من أنتم ؟ ومن أين جئتم ؟ وكيف حصلتم على البقرة ؟

أجبتهم عما أرادوا ، ولكنهم لم يصدقوني حتى لقد ارتفعت الأصوات تتهمنا بسرقة البقرة الهاربة من صاحبها ، وهددونا بالسجن .

وبعد نصف ساعة كنا في السجن فعلاً !

وبقرتنا ؟ بقرتنا المسكينة ؟ ما مصيرها ؟ آه .. ما أجمل هديتنا أيتها الأم باربرن !

جاء القاضي بعد قليل ورأى أن يستجوبنا منفردين .

ورويت له حكايتنا كلها بصوت مرتجف فصدقني ، ولكنه فضّل أن يتحقق من أقوالي .

وأخيراً عادت الأمور إلى مجاريها يوم الغد ، إذ شهد بيطري أوسل على صدق أقوالنا ، وأننا اشترينا بقرتنا بحُرِّ مالنا !...

أعادوا إلينا بقرتنا أخيراً ، وجعل ماتيا يرقص وهو يرمي قبعته في الهواء ، ورغم كل شيء فإن " بقرة الأمير " دخلت ظافرة إلى شافانون !

الفصل السابع عشر

الأم باربرن

تستطيعون أن تتصوروا شعوري وأنا أنظر إلى شافانون من فوق الهضبة ، وأمسكت بيد ماتيا .

كان خيط من دخان أصفر يتصاعد من مدخنتنا الصغيرة ، فهتفت بصوت تخنقه العبرات :

– أتكون الأم باربرن في بيتها ؟ انظر إلى شجرة الإجاص التي حدثتك عنها هناك في الباحة .. لننــزل مسرعين ..

فقال ماتيا :

– إذا كانت الأم باربرن في بيتها ، فكيف سنفاجئها ببقرتنا ؟

– حسناً .. سندخل البيت أولاً وتقول لها إن معك بقرة أرسلها إليها الأمير ، فإذا سألتك من ذاك الأمير ظهرت أمامها .

– هذا رائع .. وإذا عزفنا معاً سيكون أروع .

ولكننا حينما هبطنا إلى الطريق لمحنا من بعيد امرأة تضع منديلاً أبيض على رأسها وتخرج من البيت متوجهة نحو القرية ، فقلت له :

– الأم باربرن قد خرجت ، وعلينا أن نبتكر مفاجأة أخرى .

– ما رأيك لو تناديها ؟

كنت أعرف عادات الأم باربرن حق المعرفة ، وأظنها لا تغلق الباب بالمفتاح ، وحين وصلت إلى باب بيتنا الحبيب صح ظني ، وكان ماتيا قد سبقني ، فأكد لي أن البيت خالٍ ، فدخلنا مسرعين ونحن نسحب بقرتنا . فتحت باب الزريبة فكانت مملوءة بالأخشاب المتراكمة في زاوية ، فوضعنا البقرة أمام المعلف الفارغ ودخلنا إلى البيت .

بعد مدة لمحنا الأم باربرن في أول الطريق ، فقلت لماتيا :

– اختبئ حالاً .

وأما أنا فجلست على مقعدي الصغير قرب الموقد ، وأخفيت شعري الطويل تحت ياقة سترتي ، وضاءلت شخصي ، فلمحتني الأم باربرن منذ دخولها فهتفت قلقة :

– من هناك ؟ ولكن .. ولكن .. هذا أنت ؟ ريمي ؟ ..

وجريت إليها أحتضنها بين ذراعي وهي تنتحب مرددة :

– يا ولدي .. إنه ولدي عاد ، ولدي .

وسمعت حركة وراء السرير فتذكرت ماتيا ، فعرفتها به ، كما عرفتها بكابي الذي حيَّاها باحترام وهو يضع قائمته الأمامية على قلبه وينحني . فأدخل هذا البهجة على قلب الأم باربرن وكفكفت دموعها .

بعد قليل توجهت نحو الباب زاعماً أني سأفرّج ماتيا على شجرة الإجاص ، ومشت الأم باربرن في إثري خطوة بخطوة .

في تلك اللحظة كنّا نمر أمام الإسطبل ، وحسبت البقرة أننا نحمل إليها علفاً ، فأطلقت خواراً عالياً .. صرخت الأم باربرن وقد امتقع وجهها :

– آه يا رب ! بقرة في الإسطبل ؟

حينئذٍ فاضت بنا النشوة أنا وماتيا وجعلنا نرقص ونطلق صرخات الفرح . فجأة قالت لي الأم باربرن بلهجة عتاب :

– لماذا لم تكتب لي أبداً تعلمني عن أحوالك ؟ كنت أقول في نفسي لو أن ريمي على قيد الحياة لكتب إلى الأم باربرن .

فأجبتها : بالتأكيد .. ولكنها لم تكن وحدها ، كان معها الأب باربرن الذي باعني بأربعين فرنكاً لموسيقي جوال .

قالت وهي تتحسر : أعرف ذلك .



فأجبتها : لا أقول هذا معاتباً ، بل لأشرح لك السبب ، وكنت أخشى أن يبيعني مرة ثانية ، ولذلك لم أرسل لك أخباري بعد موت فيتاليس معلمي الرائع .

– إذاً مات الموسيقي الشيخ !

– نعم ، ولكم بكيت عليه ، لأنه هو الذي علمني كل شيء ، ثم كفلني بستاني قرب باريس ، وعاملني كأحد أبنائه مدة عامين ، فلو كتبت إليك أني لدى بستاني قرب باريس أما كنت أسرعت لانتزاعي منه ؟ أو طلبت المال من هذا الرجل الشهم ؟ ولا أريدك أن تفعلي هذا ولا ذاك .

هنا أظهر ماتيا لباقته واستأذن بالخروج وتركنا وحدنا ، فقلت لها :

– لقد ذكرت لي منذ قليل أن لديك أشياء تقولينها بشأن رحلة باربرن إلى باريس .

– نعم يا ولدي ، إنها أخبار طيبة .

وكنت في غاية الحيرة فأضافت :

– الظاهر أن أهلك يبحثون عنك .

– أهلي ؟ .. أهذا ممكن ؟ مستحيل .. إنه باربرن الذي يبحث عني ..

– لا شك أنه باربرن .. ولكنه يريد أن يرجعك إلى أهلك .. لا تخف وأصغ إلى ما سمعته بنفسي .. منذ أكثر من شهر كنت أمام التنور حينما دخل رجل أو سيد نبيل إلى البيت وسأل جبروم :

– أنت المدعو باربرن ؟

قال جيروم :

– نعم أنا هو .

– وهل أنت الذي وجد طفلاً منذ عشر سنوات في باريس شارع " بريتويل " وتكفلت برعايته ؟

ولم أكن لأشك في صدق حديث الأم باربرن فأضافت :

– لم أسمع البقية ، لأنهما خرجا ليتابعا الحديث ، وكنت مشوقة لأعرف ما يقولان ، ولكن جيروم قد ذكر لي أن هذا الرجل النبيل لم يكن أباك ولكنه مكلف بالبحث عنك من طرف عائلتك ، لذلك ذهب جيروم إلى باريس ليجد الموسيقي الشيخ الذي أجّره إياك وقد أعطاه عنوانه لدى موسيقي آخر اسمه غارفولي ، وقد حفظت كل هذه الأسماء ، وعليك حفظها أنت أيضاً ، هذا هام جداً .

هززت رأسي .. فلن يخالفني الحظ فأنسى غارفولي .

– وهل وصلت أخبار جيروم ؟

– لا ، ولا شك أنه يتابع بحثه ، لأن الرجل النبيل قد أعطاه مائة فرنك ذهبية ، ولا ريب أنه أعطاه سواها منذ ذلك الحين . أقول هذا لأن الملابس التي كنت ملفوفاً بها وأنت رضيع تدل على أنك من عائلة غنية ، هذا أكيد .

في هذه اللحظة مر ماتيا أمام الباب فهتفت له :

– ماتيا .. أخبار رائعة .. أهلي يبحثون عني .

ودهشت إذ رأيت ماتيا غير متحمس لهذه الأخبار .

الفصل الثامن عشر

العائلة القديمة والعائلة الجديدة

لم أذق النوم في تلك الليلة ، وقد حلمت أحلاماً متشابكة: رأيت فيها أني استعدت عائلتي الغنية ، وكذلك فيتاليس ، وحتى زربينو ودولسه .

ولكن لا مناص من الاتصال باربرن ، ولذلك يجب علي البحث عنه في باريس ، لأنه ليس من هؤلاء الرجال الذين لا يخطون خطوة دون علم زوجاتهم ، ومنذ رحيله لم يكتب إلى زوجته ولكنه نقل إليها أخباره مرة أو مرتين بواسطة بنّاء عائد إلى القرية .

هذا كل شيء ، وكل ما تعرفه الأم باربرن أنه يسكن في فندق فخم في شارع موفيتار .

حينما كان حليب بقرتنا يحضر على النار لنفطر به ، أفضيت إلى الأم باربرن بهذه الأفكار ، فقالت في الحال :

– هذا أكيد ، عليك الذهاب إلى باريس فوراً لتجد أهلك .

كان هذا رأيي أيضاً ، فقلت لنفسي مبتهجاً :

– إلى باريس إذن .

ولكن ماتيا لم يوافق على هذه الفكرة ، بل عارضها ، فقلت له مندهشاً :

– ألا تريد أن أجد عائلتي ؟ اشرح لي الأسباب على الأقل .

فقال بهدوء :

– رأيي أنه لا يجب عليك أن تضحي بعائلتك القديمة من أجل عائلة جديدة ، لقد كانت عائلتك حتى الآن ، ليز وإيتانت وألكس وبنجامين هم الذين أحبوك وتبنوك وكانوا لك إخوة وأخوات ، وها هي الآن عائلة أخرى لم تفعل لك شيئاً سوى أن رمتك إلى الطريق ، فهل تهجر من أحسنوا إليك لأجل من أساؤوا لك ؟ هذا لا أراه عدلاً .

أطرقت إلى الأرض ، فإن ما قاله ماتيا لم يكن زيفاً ، ويؤلمني أن يغضب ماتيا مني ، فقلت له :

– اسمع ، سنحاول التوفيق بين الأمرين ، لن نذهب لرؤية إيتانت لأن الطريق إليها طويلة ، مع أن إيتانت تحسن القراءة ويمكننا التخاطب معها بالرسائل ، ولكننا قبل الذهاب إلى باريس سنمضي لرؤية ليز والعمة كاترين ، وما قمت بهذه الرحلة الطويلة إلاّ من أجل ليز ، وهي

لا تعرف الكتابة ، لذا سنطلب من " إيتانت " أن تراسلها فنعرف أخبارها وننقلها إلى ألكس .

قَبل ماتيا أن نسافر من الغد ، وكتبت رسالة مطولة إلى إيتانت ، وفي الصباح عانقت الأم باربرن ثم غادرنا المكان ، حقائبنا على ظهورنا وأحذيتنا ذات المسامير في أقدامنا .

لولا أننا مضطرون لكسب لقمة العيش في الطريق لأسرعنا في السير ، ولكننا مضطرون للعزف في القرى الكبرى التي نمر بها ، وبانتظار أن توزع عائلتي ثروتها عليّ وعلى أصدقائي يجب علي الرضا بما يرميه القرويون إلينا .

ولدي سبب آخر يدعوني لجمع المال ، وهو عزمي على شراء " لعبة " لليز وقد حصلنا على ما يكفي لشراء اللعبة ، ووجبة رائعة لنا أيضاً .

ولكم خفق قلبي حينما لمحنا في دجى الليل النور يلمع في البيت الذي تسكنه ليز .

وحين دنونا منه لمحنا من النافذة عدة أشخاص جالسين إلى الطاولة ، في مواجهتي ليز وبجانبها العمة كاترين ، ولعل الرجل الذي رأينا ظهره يكون زوجها . قال ماتيا :

– لقد وصلنا في وقت العشاء تماماً .

طلبت منه السكوت ، وأخذت قيثارتي وبدأت أعزف عليها أغنيتي الإيطالية ، وما كادت ليز تسمع أول لحنها حتى رفعت عينيها إلى النافذة ونظرت إليها نظرة رائعة ، ورفعت صوتي بالغناء : فنـزلت عن كرسيها وهرعت إلى الباب ، ولم يسنح لي الوقت لأضع قيثارتي جانباً ، فقد رمت ليز نفسها إلى عنقي .

دخلت المنـزل ، فعانقتني العمة كاترين ، وأضافت صحنين إلى المائدة فرجوتها أن تضيف صحناً ثالثاً لأن معنا رفيقاً ، وجذبت العروسة من حقيبتي ووضعتها على الكرسي بجانب ليز ، ولن أنسى ما حييت تلك النظرة التي رمتني بها ليز وما زلت أذكرها إلى اليوم .

الفصل التاسع عشر

في باريس

وددت لو أبقى قرب ليز أياماً وأياماً ، فإن ما بيننا أشياء كثيرة نقولها بالحركات .

وقد بدت سعيدة مع عمتها كاترين التي عطفت عليها وكذلك زوجها ، وكان لدي أشياء أسألها عنها وأولها حال أبيها ، وهل خرج من السجن ، ولكن الموضوع الرئيسي لمحادثتنا كان عائلتي الغنية ، وكم سأكون سعيداً لو أنها تستطيع أن تتدخل لتخرج الأب أكوين من السجن وتجد لماتيا مهنة مناسبة له .

ودع بعضنا بعضاً ، وكان كابي يقفز من شخص إلى آخر .

ثم حملنا حقائبنا وتوجهنا إلى الطريق من قرية " دروزي " إلى باريس دفعة واحدة ، ولم أحمل همّ النقود وعائلتي جادة في البحث عني .

لم يتأثر ماتيا بأفكاري المتفائلة ، فقال لي وهو يجبرني على حمل قيثارتي :

– لنكسب من المال ما استطعنا ، فليس أكيداً أن نعثر على باربرن في الحال .

فأجبته :

– إن شارع موفيتار ليس طويلاً .

– وإذا غادره ؟ أو عاد إلى شافانون أثناء ذلك ؟

كان ماتيا على حق ، ولكنني لم أعد أغنّي بحماسة وإتقان إلا حينما عزمت على شراء بقرة للأم باربرن أو عروس لليز .

قال لي ماتيا :

– كم ستكون كسولاً حين تغدو غنياً !

من الغد كنا في باريس التي غادرناها منذ ستة أشهر ، وازدادت كآبة ماتيا شيئاً فشيئاً وقال لي فجأة :

– أتعرف أني غير مهتم بالذهاب إلى شارع موفيتار ؟

– ماذا ؟

أجبته وأنا في غاية الدهشة .

– وهل نسيت أنه على خطوات من شارع موفيتار يوجد شارع لورسين الذي يسكنه غارفولي ، وليست بي رغبة في العودة إلى عبوديته .

لم أفكر بهذا .

– وهل تفضل البقاء خارج باريس ؟

– لا ، كل ما أطلبه ألا أذهب إلى شارع موفيتار ، لقد كان خالي في السجن حينما غادرنا باريس ولعله قد خرج منه اليوم .

فقلت :

– حسناً سأذهب إلى شارع موفيتار وحدي ونلتقي هذا المساء .

وافترقنا في ساحة " إيطاليا " وكأننا لن نلتقي بعد الآن ، توجه ماتيا وكابي نحو " حديقة النباتات " ومضيت أنا إلى شارع موفيتار .

كنت قد كتبت أسماء الأماكن والعناوين التي يمكن لباربرن أن يوجد فيها ، وذلك زيادة في الحيطة لأني أحفظها عن ظهر قلب .

وبحثت عن رجل اسمه بارابو فوجدته بسهولة ، وهو صاحب الفندق ، ولكنه يبيع الفواكه والخضار أيضاً .

وانتظرته حتى باع شيئاً من السبانخ لأحد زبائنه ثم سألته عن باربرن فقال :

– باربرن .. باربرن .. آه أظنني سمعت هذا الاسم .. نعم .. نعم .. حدث ذلك منذ أربع سنوات .

فأجابت امرأة :

– بل خمس سنوات ، وقد هرب دون أن يدفع لنا أجرة أسبوع .

– فأين هذا المحتال الآن ؟

وكان هذا بالضبط الذي أطرحه على نفسي ، فتركت الفندق وقد بلغ بي الحنق أشده .

ولم يبق سوى رجل اسمه شوبينت . كان شوبينت صاحب مطعم أو إنه يزعم ذلك .

حين دخلت المطعم وجدت عدداً من العمال وأصحاب الصنائع والمتشردين جالسين إلى الطاولات وأمامهم صحون فيها مزيج يدفع إلى الغثيان .

قال لي شوبينت :

– باربرن .. نعم أعرفه جيداً .. ولكنه ترك المنطقة .

وسألته بصوت مرتجف من الانفعال :

– وأين هو ؟

– لا أظنك تريد به شراً ، وآخر أخباره أنه يقيم في فندق كنتال ، ولعله غادره ، ولكن كان فيه منذ ثلاثة أسابيع .

شكرت الرجل وقد استعدت الأمل في العثور على باربرن .

مررت في طريقي على شارع لورسين لأعرف أخبار غارفولي ، وعثرت على المنـزل بسهولة ، وكما في المرة الأولى التي جئت فيها مع فيتاليس كان بائع الملابس المستعملة نفسه يعلق الثياب على الحائط وكأنه لم يتحرك من مكانه منذ سنتين .

وسألته :

– هل عاد السيد غارفولي ؟

فقال وهو يرمش بعينيه :

– ارفع صوتك ، أذني ثقيلة السمع .

فقربت فمي من أذنه وصرخت :

– هل غارفولي ما يزال هناك ؟ ألا يسأم من مرور الوقت ؟

فقال لي مبتسماً :

– الوقت يمر علينا وعليه .

– ولكنه يمر عليه بشكل بطيء .

فضحك الرجل حتى أصابته نوبة من السعال وقال :

– سيعود بعد ثلاثة أشهر ، هل تترك لي عنوانك ؟

فشكرته ومضيت

الآن سيهدأ خاطر ماتيا لأن المعلم الرهيب لن يسترده في وقت قريب .

تابعت طريقي إلى فندق كنتال عامراً بالآمال ، وشعرت بشيء من الرأفة تجاه باربرين لأني لا أعرفه جيداً ، ولعله لم يكن شريراً كما تصورت .

دخلت فندق كنتال بعزيمة ، وطرحت السؤال المعتاد وقلبي يخفق من الجزع :

فأجابتني امرأة ترتجف يداها ويرتجف رأسها في آن واحد دون انقطاع :

– باربرن . آه . نعم باربرن المسكين .. وا أسفاه !

ونظرت إليّ بإمعان :

– ألست هو ذلك الفتى ؟

فقلت قلقاً :

– أي فتى ؟

– الفتى الذي كان يبحث عنه ؟

وخفت إذ كانت تتكلم عن باربرن بالزمن الماضي فقلت :

– لا تقولي إن باربرن قد ..

– نعم لقد توفي منذ ثمانية أيام في مستشفى سانت أنطوان ، أنت هو الفتى إذن ؟

– نعم إني هو .. ولكن رجاءً يا سيدتي ماذا قال لك ؟

– لم يذكر لي أموراً كثيرة ، وكل ما أعرفه أنه يبحث عن طفل التقطه وسوف يرده إلى عائلته الغنية .

– ولكن أي عائلة ؟ هل أعطاك عنواناً ؟

– لا لم يعطني شيئاً ، فهو رجل كتوم يريد المكافأة وحده ، وهذا أمر طبيعي ، أليس كذلك ؟

قلت بلهجة يائسة :

– لم يترك أوراقاً ؟!

– لا ، ترك عنوان زوجته ولذلك استطعنا الاتصال بها .

– الأم باربرن على علم بموته إذن ؟

– طبعاً .

وتوجهت إلى الباب وكأني في حلم ، فقالت لي المرأة :

– أين أنت ذاهب على هذه الحال ؟

– لألتقي بصديق لي .

– آه ، لك صديق تسكن عنده ؟

– لا ، فقد وصلنا باريس هذا الصباح .

– عودوا باكراً ، فباريس خطرة في الليل .

ومضيت لأرى ماتيا وروحي بين الحياة والموت ، وحين رآني من بعيد هتف لي :

– وإذن ؟

– مات باربرن .

فجرى نحوي مصفر الوجه وقد تبدلت ملامحه حزناً ، مما أدخل البهجة على قلبي وحكيت له ما صادفته في يومي ، وذكرت له أنْ لا خوف عليه من غارفولي ، فانفرجت أساريره وقفز في الهواء وهو يهتف :

– الحمد لله .. ما تزال أمامي ثلاثة شهور .

ثم قال بصوت رزين :

– إنها لحياة عجيبة ، لقد أصابنا اليأس لأنك لا تجد عائلتك ، وشعرنا بالبهجة لأني فقدت عائلتي ، فقلت :

– ليس الأمر سواء ، صحيح أنّ غارفولي خالك ، ولكن الخال على هذه الشاكلة لا يعد من العائلة وكأنما هو ميت ، تخيل أنك فقدت أختك الصغيرة كريستينا فهل كنت تبتهج كما تفعل الآن ؟

أجاب مصدقاً : صحيح .

أمضيت ليلة حزينة في فندق كنتال ، فقد كان فندقاً قميناً لم أر أقذر منه في حياتي المتشردة ، وكانت غرفتنا على السطح يضيئها شمعدان يتصاعد منه الدخان .

وكان رأي ماتيا مثل رأيي ، وهو البقاء في فندق كنتال بعض الوقت لعل رجل القانون يعود إلى الظهور .

ونمت على هذا الأمل السعيد ..

الفصل العشرون

الأبحاث

كان أول شيء فعلته صباح الغد أن كتبت رسالة مسهبة للأم باربرن أشرح فيها الوضع ، وأرجوها أن توجه إلي أيّ رسالة تصل باسم زوجها .

خلال ذلك عزمت على زيارة الأب أكوين في سجن " كليشي " ولن تكون زيارتي - كما آمل - لتسديد دينه وإخراجه من سجنه ، بل لطمأنته على ابنته ليز وولده ألكس ، والتأكيد له بأني لم أنسه بانتظار أن تتحسن الأحوال .

كان لدى ماتيا رغبة عارمة في رؤية " سجن حقيقي " وأراد أن يذهب معي ، وكان لا يعدّ الغرفة ذات النوافذ المغطاة بالقضبان المملوءة بالبصل سجناً ، تلك الغرفة التي سجنونا فيها من أجل البقرة الهاربة .

لم نجد صعوبة هذه المرة في مقابلة الأب أكوين ، ومد يده إلي وهو يهتف : " أيها الولد الطيب " .

حدثته عن ليز وألكس وإيتانت ، ولكنه قاطعني بعد لحظة وقال :

- وأهلك ، هل وجدهم باربرن ؟

فقلت مندهشاً : تعرف الحكاية إذن ؟

- فأخبرني أن باربرن قد اتصل به في السجن ليعرف الظروف التي تعرفت فيها على عائلة الأب أكوين .

وسألته : ألم يذكر لك شيئاً آخر ؟

- لقد كان باربرن رجلاً حذراً ، ولا يريد أن تفلت المكافأة من بين يديه ، ولكن لا تحزن ، إن استطاع أهلك الوصول إلى باربرن في قرية شافانون فسوف يتصلون بك في فندق كنتال فلا تغادره .



بعد أسبوع أخبرتني صاحبة الفندق أنه قد وصلتني رسالة أثناء النهار ، فكانت رسالة من الأم باربرن .

شرحت لي الأم باربرن في رسالتها أنها تلقت نبأ وفاة زوجها في المستشفى ، وقبل زمن قصير وصلتها رسالة فبعثتها إلي لعلها تكون ذات فائدة لأن فيها معلومات حول عائلتي .

فقرأنا رسالة باربرن ماتيا وأنا وقلبانا يخفقان :

" زوجتي العزيزة : إني الآن في المستشفى وقد اشتد بي المرض ولن أقوم منه ، ولو كنت قادراً لقلت لك كيف أصابني ، ولكن المهم أن تعلمي أني إذا توفيت فعليك أن تكتبي إلى العنوان التالي :

غريت وغالي ، غرين سكواير ، فندق لنكولن في لندن . وهم رجال القانون المكلفون بالبحث عن ريمي .

ستقولين لهم إنك الوحيدة التي تملكين عنوان ريمي ، وسوف تأخذين مكافأة كبيرة على هذه المعلومات ، وهذه المكافأة تكفيك للعيش مدى الحياة ، وإذا أردت أن تعرفي مكان ريمي فاكتبي إلى المدعو أكوين في سجن " كليشي " وهو يدلك عليه .

استعيني بالقس على كتابة الرسائل ، فالقضية تتطلب الحذر ، ولا تثقي بشخص سواه ، لا تقومي بشيء إلا إذا وصلك خبر موتي .

قبلاتي الأخيرة .

جيروم " .

رمقني ماتيا برهة بعينيه اللامعتين ثم نهض واقفاً يرقص ويهتف

- هيا إلى لندن !

فقلت مذهولاً :

- ولماذا الذهاب إلى لندن ؟

- يا رجل ! إذا كان رجال القانون المكلفون بالبحث عنك من الإنكليز ، فمعنى هذا أن عائلتك إنكليزية فهل هذا يزعجك ؟

- حسناً .. إلى لندن إذن ..

الفصل الحادي والعشرون

لندن

قضينا ثمانية أيام في الطريق من باريس إلى بولون إذ كنا نتوقف في المدن الكبرى لتقديم استعراضاتنا والحفاظ على رأسمالنا ، وحين وصلناها كان معنا اثنان وثلاثون فرنكاً تكفي لمصاريف الرحلة .



قضى ماتيا كل الرحلة مريضاً وكنت قد حدثته عن سحر السفر بالبحر ، وما كنت أعرف من ركوب البحر سوى مركب " البجعة " الذي يتهادى ببطء على مياه القنوات الساكنة ، وأين منه هذا المركب الصغير الذي يتراقص كالفلّينة فوق أمواج المانش .

ومما زاد في غيظي أني لم أصب بدوار البحر ، فقال لي ماتيا وهو خائر القوى :

– ولا تحس بالدوار في رأسك ، لأن رأسك فارغ .. آه .

ولم يدم عذاب ماتيا سوى بضع ساعات ، ثم صعد والمركب في نهر التايمز يتهادى على مياهه ، ولكن لم تتغير حالة ماتيا وفضل النوم ليستعيد قواه .

تأملت النهر ، ما أجمل هذه السفن وما أكثر تلك الصواري ! لا أظن أن هذا العدد الهائل من السفن يجتمع في مكان واحد .

ولئن أدهشتني " بوردو " لقد فتنتني لندن .

ولسوء الحظ فإن الضباب الكثيف تصاعد من كل مكان وحجب عني هذا المشهد الرائع . ووصلنا أخيراً إلى لندن . قلت لماتيا :

– حان الوقت لتستخدم لغتك الإنكليزية !

اقترب ماتيا من رجل أحمر اللحية وسأله ، واستمرت المحادثة أكثر مما ينبغي ، وكان الرجل يستعيد الكلمة عدة مرات .

وبعد مدة عاد ماتيا وهو يقول :

– القضية سهلة ، ما علينا سوى المسير مع مجرى التايمز .

فأجبته وقد ساورني الشك :

– متابعة التايمز ؟

ومشينا في الأزقة الغارقة في الوحول ، فلم يكن في لندن أرصفة وقتها ، وكان ماتيا يسأل المارة عن الطريق وهو يبحث عن باب كبير في

نهاية الشارع . وحسبت أن ماتيا قد أخطأ ، ولم أفهم مسألة هذا الباب الكبير .

وكم دهشت إذ تبين لي أن ماتيا على حق .

وما زلنا نمشي حتى وصلنا قرب مقبرة ، فسألنا أحد المارة فأكّد لنا أن هذا هو " غرين سكواير " وغير بعيد وجدنا بيتاً مبنياً بالطوب الأحمر وفوقه لافتة من النحاس كتبت عليها الكلمات المأمولة : غريت وغالي .

دخلنا أخيراً مكتباً توزّع فيه الموظفون يكتبون في السجلات على نور مصابيح الغاز في وضح النهار ! وتبين لي بعدئذٍ أن هذا أمر مألوف في لندن .

توجه ماتيا إلى أحد هؤلاء الأشخاص فكان لاسم باربرن صداه فأدخلنا إلى غرفة مملوءة بالكتب والأوراق .

كان الرجل جالساً وراء مكتب يتحدث مع شخص واقف ومعه عدد من الملفات .

فأطلعه الموظف على ما نريد ، فالتفت إلينا الرجل وقال بالفرنسية ولكن بلكنة أجنبية :

– من منكما الطفل الذي رباه باربرن .

– أنا هو يا سيدي .

– وباربرن أليس معكما ؟

– لقد توفي .

وتبادل الرجلان النظرات ثم غادر الرجل الواقف الغرفة .

وسألنا الرجل الآخر :

– كيف عرفتم أنه يجب القدوم إلينا ؟

فرويت له باختصار ما حدث لي ، ولكنه أصر على معرفة التفاصيل ، فحكيت له كيف باعني باربرن إلى فيتاليس ، وكيف كفلني الأب أكوين إلى آخر الحكاية ..

وطرحت عليه أخيراً السؤال الذي كان يلهب شفتيّ :

– هل تسكن عائلتي إنكلترا يا سيدي !

– طبعاً ، ولندن بالتحديد .

– إذن .. أودّ أن أراها .

– هذا المساء .. سنذهب بعد قليل .

– وهل لي أب ؟

– لك أب وأم وإخوة وأخوات ، ونسيت أن أقول لك إن اسم عائلتك " دريسكول " .

بعد قليل دخل الغرفة رجل وتحادث مع رجل القانون هذا ، ثم طلب مني أن أتبعه .

ركبنا العربة فسارت بنا في شوارع لندن ، وكان الرجل الذي بصحبتنا يفرك يديه ويتنشق الضباب بشوق ، كأنه كان مسجوناً عدة شهور .

ولا أستطيع وصف العواطف التي غمرتني .

فكنت أحدق في الشوارع لأتعرف على المباني وأحفظ تفاصيل هذه المدينة الجديدة التي كانت " مدينتي " ووطني .

بعد قليل توقفت العربة ورفض السائق أن يتابع المسير ، وحمي الجدال بين الموظف وبينه ، ثم أعطاه أجرته وصرفه .

وسأل الموظف أحد رجال الشرطة فرافقنا ليدلنا على الطريق .

بعد مدة من السير وصلنا إلى مستودع كبير مدهون باللون الأبيض ، فطرق الموظف الباب :

لقد وصلنا ، وانعقد لساني دهشة " أهنا تسكن عائلتي الغنية ؟ يا للعجب ! " .

لم يكن لدي الوقت لطرح الأسئلة ، وكل ما أعرفه أننا دخلنا غرفة واسعة يضيئها مصباح ضئيل النور ، والنار تشتعل في موقد بالزاوية . جلس أمام هذه النار على كرسي من الخيزران شيخ أبيض اللحية ، وأمامه على الطاولة رجل ذكي الملامح في الأربعين من العمر ،

وبجانبه امرأة أصغر منه سناً شقراء الشعر ، ولعلها كانت جميلة لكنها ذابلة مرهقة .

وكان في الغرفة أربعة أطفال : ولدان وبنتان شقر الشعور مثل أمهم ، والأصغر منهم فتاة لا تتجاوز ثلاث سنوات تتمرغ على الأرض .

تحدث الموظف لدى " غريت وغالي " لحظة مع الرجل ، فالتفت إلينا وقال بفرنسية جيدة :

– من منكما ريمي ؟

– أنا يا سيدي .

– هيا ، عانقني يا ولدي فأنا أبوك .

الفصل الثاني والعشرون

عائلة دريسكول



قبلت أبي ذاهلاً ثم قبلت أمي وهي تلك المرأة الشقراء ، قال أبي :

– صافح جدك ولكن برفق لأنه مشلول ، وصافحت كذلك إخوتي وأخواتي ، وحاولت أن آخذ الصغيرة بين ذراعي فدفعتني عنها إذ كانت مشغولة بمعانقة كابي .

وأحسست بالخجل ، لأني لا أحس بأي عاطفة تجاه هؤلاء الناس وتساءلت : هل أنا قاسي القلب ؟ والحق يقال إنهم لم يكونوا متحمسين للقائي أيضاً .

وظننت أني كنت قليل التهذيب فعانقت أمي مرة ثانية ولم تظهر أي عاطفة نحوي ، ولكنها قالت لأبي بضع كلمات بالإنكليزية فضحك وانقبض صدري .

أشار أبي إلى ماتيا وقال :

– وهذا ؟

فشرحت له من يكون ، فقال :

– جاء ليرى البلاد ؟

فسبقني ماتيا إلى القول :

– تماماً .

وسألني عن سبب غياب باربرن فأخبرته بموته ، فترجم كلامي إلى أمي ودار بينهما حديث ترددت فيه على الدوام كلمة " جيد " .

وساءلت نفسي : " ولماذا يكون جيداً موت باربرن ؟ "

قال أبي مبتسماً :

– لعلك تريد أن تعرف لماذا أنفقنا ثلاث عشرة سنة في البحث عنك ؟ إنك ولدنا البكر .

قبل زواجي من أمك كنت قد خطبت فتاة أخرى فحقدت عليها وانتظرت ولادتك فخطفَتْك انتقاماً منها ، وسافرت بك إلى فرنسا حيث رمتك في أحد الشوارع ، وقد بحثنا عنك في كل مكان ولم نكن نظن أنك في باريس ، وقد يئسنا من العثور عليك لولا أن هذه المرأة اعترفت بفعلتها قبل موتها ، وسرعان ما سافرت إلى باريس وقابلت ضابط شرطة الحارة التي التقطوك فيها ، واتصلت بباربرن الذي شرح لي كيف أجّرك لفيتاليس ، ولم يكن ممكناً لي البقاء مدة طويلة في باريس ، فكلفت

الشرطة بمتابعة القضية ، وأنت تعرف بقية الحكاية ، ولئن لم أعطهم عنواني هنا فذلك لأننا لا نعيش في لندن طول السنة ، بل ننتقل في أنحاء إنكلترا كما يفعل الباعة المتجولون ، وهذه مهنتنا .

بعد فراغنا من العشاء توقعت أن نسهر قليلاً بقرب النار ، ولكن أبي طلب منا الذهاب إلى النوم لأنه ينتظر بعض الأصدقاء ، فحمل شمعداناً ورافقنا إلى حجرة واسعة فيها عربة كبيرة مما يستعمله الباعة المتجولون وفتح بابها وإذا بداخلها فراشان أحدهما فوق الآخر .

فقال لنا :

– هذا فراشكما ، تصبحون على خير .

ثم أقفل علينا الباب بالمفتاح .

ومرت الساعات وكنت على وشك أن أنام حين سمعت طرقات على باب الباحة الخارجي وعدة نداءات .

نظرت من نافذة العربة التي ننام فيها فرأيت أبي يفتح الباب ثم يغلقه بسرعة وراء رجلين يحملان صرراً كبيرة من الثياب ، ووضع أبي إصبعه على شفتيه يعلمهما بأننا ننام في العربة ولا يجوز إيقاظنا .

ساعد أبي الرجلين على حمل الصرر ورجعت أمي بعد فترة قصيرة ، وحين فتحوا الصرر كان فيها الثياب من كل نوع ، فعرفت أنهما من الباعة الذين يتجرون بالثياب ، وقد جاءا يعرضان بضاعتهما

على أبي ، فكان أبي يتفحص كل قطعة على ضوء الشمعدان ثم يدفعها إلى أمي التي تقص البطاقة عنها ، ووجدت الأمر غريباً في هذه التجارة التي تتم في هذا الوقت من الليل !

ولم أفهم شيئاً من كلامهم ، ثم انصرف الرجلان .

وبدأ أبي يكنس زاوية من الباحة حتى وجد حلقة فجذبها فانفتح غطاء قبو في الأرض .

فأنزل صرر الثياب إلى القبو وأمي تضيء له بالشمعدان . وحين انتهى من عمله أغلق غطاء القبو ونشر فوقه الرمل والأعشاب وعاد كما كان من قبل ، وفهمت كل شيء .

ولكن الخوف الذي أحسست به قبل قليل شيء ضئيل بالقياس إلى ما أحس به الآن من الجزع ، ونمت رغم كل شيء .

نهضت صباح الغد فلم أجد أبي ولا أمي ، وتوجهت إلى إخوتي وأخواتي ألقي عليهم تحية الصباح فلم يكادوا يردون علي .

فطلبت من ماتيا أن يسأل الجد عن ساعة رجوع والدي ، فقال إن أبي لن يعود طوال النهار وإن أمي نائمة ، وذكر لنا كلاماً غامضاً وأظن ماتيا لم يحسن ترجمته .

فقال ماتيا :

– يقول الشيخ ، اغتنموا فرصة للهرب !

اندفعنا إلى الطريق . ما زلنا نسير حتى بلغ بنا التعب أقصاه ، فجلسنا على مقعد في إحدى الحدائق ، فأحسست بالدموع تتصاعد إلى عيني وأصابتني نوبة من البكاء ، وكان ماتيا يخفف حزني فقلت له :

– عليك أن تسافر إلى فرنسا حالاً .

فقال دون أن ينظر إليّ :

– لن أتخلى عنك هنا ، ويجب أن تعود معي إلى فرنسا .

– مستحيل ، لا يمكن أن أهجر الآن أهلي بعد أن وجدتهم .

فرفع رأسه وسألني :

– وهل أنت متأكد أن هؤلاء هم أهلك حقاً ؟ فأنا لم أتخيلهم على هذه الحال .

فأطرقت إلى الأرض وقلت :

– إني متأكد من أنهم أهلي ، ولعلك تقول هذا لأنك لم تنم ليلة البارحة ، أليس كذلك ؟

– نعم ، لم أنم البارحة ، رأيت كل شيء .

– وماذا فهمت ؟

– الشيء نفسه الذي فهمته أنت أيضاً .

فهذه البضاعة مسروقة . لأنهم دخلوا من الباب الخلفي ، وكانت تتردد في أحاديثهم كلمة " شرطي " بالإنكليزية التي لا تفهمها أنت ،

أضف إلى ذلك أن أفراد هذه العائلة لا يشبهونك ، ألا ترى إلى لون شعرهم الأصفر ، فهل شعرك أصفر مثلهم .

– لا ، فعلاً ، شعري كستنائي ، ولكن لا قيمة لذلك ، وإن من واجبي البقاء بجانب أهلي مهما كانت الظروف .

– في هذه الحالة أبقى معك ، كان في نيتي البقاء معك بعض الوقت ثم أعود إلى أهلي في مدينة لوك ، ولكنك الآن محتاج إلى مساعدتي ، وسوف أبقى وإن تأكدت أنها عائلتك حقاً ، وعليك أن تتحقق من بعض الأمور ، أفلا يدهشك أن عائلةً بمثل هذا الفقر تلفّك في ثياب فاخرة كما وصفتها لك الأم باربرن ؟



- إذا كانوا تجار ملابس فهذا يكلفهم أقل ..

- لا شيء من هذا ، عليك أن تكتب إلى الأم باربرن تطلب فيها أن تصف لك الثياب الفاخرة ، فلو كانوا أهلك لما نسوا شكل ثيابك وبانتظار ذلك سأبقى معك ونعمل معاً .

- ما أطيب قلبك يا ماتيا العزيز !

من الغد أرسلنا أبي لنعمل وقد فرح بمواهبنا وبمواهب " كابي " خاصة ، وقال إن هذا الكلب يساوي وزنه ذهباً ، وأما الجد فكان يتأرجح في كرسيه وهو يردد بالإنكليزية : " كلب جيد " .

عزم والدي على التفريق بيننا لسوء الحظ ، فأعزف أنا وماتيا في طرقات لندن ، على حين يسرح أخواي ألان ونيد بالكلب كابي .

ولم أعرف ماذا كانا يعملان حتى اضطرا إلى البقاء في الدار ذات يوم ، فأخذنا كابي معنا ، فغافلنا واختفى برهة ثم عاد يحمل جراباً نسائياً جديداً بين أسنانه ، وقدمه لنا وهو يهز ذيله ، لقد دربوه على السرقة !

فرجعنا مسرعين إلى البيت ، وكانت أول مرة أناقش فيها أبي نقاشاً جاداً ، فقلت له :

- لقد درّبوا " كابي " على السرقة ، وآمل أن يكون هذا للتسلية فقط .

التمع الغضب في عيني أبي لحظة ولكنه قال بلهجة الرجل الصالح :

- عندك الحق فهذه مجرد تسلية ، وحتى لا يتكرر هذا الأمر فلن يخرج كابي إلا معكما .

وانقضت عدة شهور على هذه الحال ، واتضح لي أن إخوتي وأخواتي يكرهونني ، وأمي لا تهتم بي .

ولم تتعلق بي سوى الصغيرة (كات) ، فكنت أعطيها ما يتصدق علينا به الناس من حلوى وبرتقال هدية للكلب .

لم تكن الرسالة التي تلقيت جوابها من الأم باربرن لتفضي إلى شيء .

فقد وصفت لي بالتفصيل الملابس التي كنت ألبسها رضيعاً ، وحين سألت أبي عنها لم يندهش لسؤالي ، ووصفها لي كما وصفتها الأم باربرن .

زد على ذلك أنه أبرز صورتي وأنا رضيع ، فلم يعد لدي شك في أنني ولده ، وقد انزعج ماتيا لذلك .

ذات يوم أبقاني أبي في البيت وقدمني إلى صديق لم أره من قبل ، وكان يرتدي ثياباً أنيقة لا يرتديها سوى الناس الذين يشار إليهم باسم " الجنتلمان " .

وكان يبدو عليه الخيلاء والإرهاق ، ولكن ابتسامته غير مألوفة ، إذ أن له أسناناً مدببة مثل أسنان الكلب ، وكان يتبادل الحديث

بالإنكليزية مع أبي ، ثم التفت إلي وقال بفرنسية ليس فيها لكنة أجنبية :

– كيف حالك يا بني ؟

حسبته أول الأمر طبيباً يعود العائلات الفقيرة مجاناً ، ثم ظننته يبحث عن خادم له ، فأزعجتني هذه الفكرة لأنها تبعدني عن ماتيا وكابي . ولم يكن يروق لي .

وبعد مدة خرج بصحبة أبي ، وانتظرت طويلاً ولكنهما لم يرجعا ، فمضيت إلى العربة لأنام وإذا فيها ماتيا منكمشاً على نفسه ، فوضع أصبعه على فمه وقال همساً :

– افتح الباب بهدوء وسأخرج وراءك ، لا يجب أن يعرف أحد أنني كنت هنا .

وفعلت دون أن أفهم ، وحين خرجنا إلى الطريق قال لي :

– أتعرف هذا الرجل الذي كان يتكلم مع أبيك ؟ إنه جيمس ميلغان عم صديقك "أرتور" .

فتجمدت في مكاني ، وتابع ماتيا كلامه قائلاً :

– لم أكن أحس برغبة في التجوال فبقيت في العربة ، وفجأة دخل الباحة أبوك ومعه رجل ، وسمعت حديثهما رغماً عني ، قال له الرجل :

– إنه صلب كالصخرة لم يقتله الالتهاب الرئوي لسوء الحظ !

وقال أبوك :

– وابن أخيك كيف حاله ؟

فأجابه :

– لا بأس به ، إن السيدة ميليغان حريصة عليه ، ولكن سيأتي يوم يموت فيه ، فالمعجزات نادرة في زماننا ، وأنا أعتمد عليك ، فحين يموت آرتور لا أريد أن يتقدم أحد من الورثة ما عدا السيد جيمس ميليغان الذي هو أمامك .

فقال أبوك :

– اعتمد علي سأبذل جهدي .

أول فكرة تبادرت إلى ذهني هي العودة إلى البيت وسؤال السيد جيمس ميليغان عن عنوان ابن أخيه ، فنهرني ماتيا عن هذه الفكرة الحمقاء . وكان حديثنا طول ذلك اليوم عن آرتور ومدام ميليغان وكيف نجدهما ؟

حثّني ماتيا على الرجوع إلى فرنسا لكي نجد المركب " البجعة " ونحذر السيدة ميليغان من المؤامرات التي تدبر ضد ولدها ، وأعاد ماتيا عليّ القول :

– يجب أن تجدهما ، وإذا لم تفعل هذا من أجلك فافعله من أجلها .

واعترضت عليه بأن مركب " البجعة " يسير في قنوات فرنسا وأنهارها ، وأن في إنكلترا أنهاراً وقنوات أيضاً فأين أجدهما ؟

فقال ماتيا :

– وددت لو تجدهما في الحال .

– ولماذا ؟

– لأنه قد خطرت لي فكرة سخيفة ولكني لا أظن أن أهلك هم عائلة " دريسكول " إلا إذا كنت أنا من نسل الإوز .

أما المرحلة الممتعة من هذه الفترة اللندية فهي حين التقى ماتيا بأحد أصدقائه .

ينبغي القول إن لدينا منافسين اثنين في شوارع لندن هما : الاسكتلنديون والموسيقيون السود ، أما الاسكتلنديون فيرقصون في الشوارع وهم يلبسون تنورات قصيرة وقبعات مزينة بالريش ويعزفون موسيقا القِرَب ، وهؤلاء منافسون يقوى عليهم ماتيا .

أما الموسيقيون السود فهم من العازفين الذين يطلون وجوههم باللون الأسود ويرتدون الملابس الغريبة ويقلدون موسيقا الجاز الرائجة في أمريكا ، وهؤلاء لا طاقة لنا بهم ، ولا نباشر عزفنا إلا إذا أتموا جولتهم . وذات يوم كنا نستمع إليهم فلوّح أحدهم إلى ماتيا بيده ، فقد كان أحد أصدقائه ، وسألته :

– هل تعرفه ؟

– نعم إنه بوب المهرج رفيقي في سيرك " غاسو " وهو الذي علّمني الإنكليزية ، ولم أعرفه لأنه كان يطلي وجهه بالألوان ، والآن يطلي وجهه باللون الأسود .

وانتهى العزف ، فاقترب بوب من ماتيا فأدركت مهارة ماتيا في اكتساب الأصدقاء ، فلو نظرت إليهما لقلت إنهما شقيقان أحدهما يكبر الآخر .

والتقينا عدة مرات ، إن صعوبة العيش قد دفعته إلى أن يكون موسيقياً جوالاً عوض أن يكون مهرجاً .

حان وقت رحيل أسرتي عن لندن للتجوال في أنحاء إنكلترا لنبيع لوازم الخياطة ، فاقترح علي ماتيا أن أنتهز هذه الفرصة لأهرب إلى فرنسا ، فرفضت الفكرة بإباء ، ولكن المصادفة قد أنجزت ما أبيت أن أفعله .

العربات أعيد دهنها ، والخيول ربطت إليها ، وكدست في العربات الطرود التي كانت في القبو ، وغادرنا لندن جميعاً ، وأعني الأسرة بما فيها الجد والوالدان والإخوة والأخوات وماتيا وكابي وأنا .

بعد ثلاثة أسابيع وصلنا إلى بلدة كبيرة ، وكان يقام فيها سباق للخيل مشهور في المنطقة كلها ، وكان يجذب إليه الناس فيغدو معرضاً متجولاً .

وقد وصلنا مبكرين فوضعنا رحالنا وذهبت مع ماتيا أتفرج على الأسواق ، وصادفنا صديقنا بوب الذي جاء ليقدم استعراضه ، وقد كان الحزن بادياً عليه لأن اثنين من رفاقه الموسيقيين لم يتمكنا من الحضور ، فاقترح علينا تعويضهما واقتسام الغلة بالتساوي حتى إنّ كابي سيأخذ حصته .

ولكن أبي لم يقبل أن نأخذ كابي معنا لأنه سيحرس العربات وقال :

– إنه حادّ السمع ويميز الأشرار من سواهم ، وسأكون مطمئناً بحضوره ، فلا أخشى أن يتسلل أحد إلى العربة حين نكون مشغولين بالبيع .

وأضاف أبي :

– ستسهران إلى ساعة متأخرة من الليل ، لذلك سنلتقي في فندق السنديانه حيث نزلنا البارحة .

السنديانة فندق موجود في مكان كئيب وسط أرض جرداء على بعد كيلومترات من البلدة .

من صباح الغد سقيت كابي وأطعمته ، ثم ربطته إلى عجلة إحدى العربات ، ثم أخذنا آلاتنا ومضينا للقاء بوب وأصدقائه .

كان يوماً مرهقاً عزفنا فيه اثني عشرة ساعة بلا انقطاع ، وكانت أصابعي منمّلة كأنها كرة من الشوك . وأما بوق ماتيا فلم يعد يصدر

سوى صوت مبحوح ، وتعب بوب وأصحابه أشد التعب ، وكلما أعلن بوب أنه " العرض الأخير " استزاده الجمهور حتى فقد توازنه وسقطت العصا الطويلة على قدم ماتيا ، فأطلق صرخة ألم ، فتوقفنا عن الاستعراض .

ولم يستطع ماتيا أن يقف على قدميه ، فبات في العربة عند بوب ومضيت إلى فندق " السنديانة " لأخبر أهلي وأتفق معهم على مكان نلتقي فيه .

على الرغم من إرهاقي الشديد أسرعت الخطا للوصول إلى الفندق ، فلم أجد العربات في الباحة ، وطرقت الباب إذ كان النور مضاء رغم تلك الساعة المتأخرة من الليل ، عرفني صاحب الفندق ولكنه لم يسمح لي بالدخول وقال :

- سافرت العربات كلها ، ويطلب أبوك منك اللحاق به في قرية " لويس " دون إبطاء .. رحلة موفقة .. وأغلق الباب في وجهي .

كانت معلوماتي في اللغة ضعيفة ، وقد فهمت منه كل شيء سوى كلمة " لويس " فقد اختلط علي لفظها ، وبحثت عنها في الخريطة فلم أعثر عليها فرجعت إلى ميدان الساحة ونمت فوق كومة من التبن .

حين استيقظت صباحاً رأيت بوب وقد جثا أمام طنجرة وهو يشعل النار وينفخ فيها بكل قواه ، ولكن الذي جذب انتباهي أحد رجال الشرطة وقد أمسك بيده رسناً ربط فيه كلباً ..

إنه كابي وظننت أن الأمور اختلطت عليّ ، ولكن الكلب انفلت من يد الشرطي وجرى إليّ يعانقني ، فحملت الكلب بين ذراعي وجعلت أمسّد له شعره ، فوصل الشرطي الذي يلاحق الكلب كابي فأمسك بياقة قميصي وقال : أهذا الكلب لك ؟

قلت : نعم .

قال : أنت موقوف باسم القانون .

الفصل الثالث والعشرون

الهرب



وقفت مذهولاً وجرى بوب يسأله :

– لماذا توقف هذا الفتى ؟

– هل أنت أخوه أو أحد من أهله ؟

– لا ، بل صديقه وأنا مواطن إنكليزي .

– لقد اقتحم رجل وفتى هذه الليلة كنيسة سان – جورج من النافذة وكان معهما هذا الكلب لينذرهما حين الخطر ، فرآهما رجل فأخبر الشرطة ، وهرب الرجلان وبقي هذا الكلب في الكنيسة ، ولا ريب أنه سيتعرف على صاحبه وهذا ما حدث ، وها أنا أمسكت بأحدهما وسوف يدلنا على شريكه .

بقيت مشدوهاً وإن أدركت أن الشرطي على حق ، ولم أكن مذنباً بالطبع ، وشرحت للشرطي بمساعدة ماتيا أني كنت أعزف حتى ساعة متأخرة من الليل ثم ذهبت بعدها إلى الفندق ، ويمكن لصاحبه أن يشهد

على صدق قولي ، فلست مذنباً ، فأجاب :

– القاضي سيقرر ذلك ، لقد ارتكبت السرقة حوالي الواحدة والربع ، وكان لديك الوقت الكافي للاشتراك فيها ، فلو جريت لاستطعت أن تسرق الكنيسة ثم تذهب إلى الفندق وتعود منه .

ومضيت معه إلى المخفر ، ومما أدخل السلوى على قلبي أن الناس الذين تجمعوا حولنا كانوا ساخطين عابسي الوجوه ، على العكس من أولئك الفلاحين حينما هربت منا البقرة .

حين مررت بماتيا هتف لي :

– تشجع ، سنهتم بك .

وقد سجنت هذه المرة في سجن حقيقي ، له قضبان ضخمة ولا تجفف فيه أكوام البصل .

قضيت ليلة فظيعة أتساءل عن المدة التي سأقضيها خلف القضبان قبل أن يتم استجوابي ، وعلمت أنه في إنكلترا لا يمكن سجن أحد أكثر من أربع وعشرين ساعة دون استجواب .

وأفضل أن لا أتحدث بالتفصيل عن جلسة ما بعد الغد ، فقد أجبت وبأفضل ما أمكنني على الأسئلة ، وكان ماتيا وبوب وأصحابه شهود براءتي ، وأثبت المحامي الذي أحضره بوب أو ماتيا أن أحداً لم يتعرف عليّ .

عدت إلى السجن بانتظار أن يصدر المحلفون حكمهم عليّ .

حين استيقظت كانت الظلمة ما تزال حالكة ،والديوك تصيح في البعيد ، ففتحت النافذة وانتظرت . كانت النجوم شاحبة ، وأظنني سمعت حركة في الطرف الثاني من الجدار ، فدققت النظر فإذا برأس يرتفع فوق الجدار .. إنه بوب أومأ إلي برأسه ، وكان في فمه أنبوب .. فنفخ فيه وسقطت كرة صغيرة في غرفتي .. إنها رسالة .

وبسرعة أغلقت النافذة وارتميت على السرير وبسطت الورقة الملفوفة حول حبة خردق ، وكان مكتوباً فيها :

" ستُنقَل غداً إلى سجن المقاطعة وتركب القطار مع الشرطي ، حاول أن تقف قرب الباب ، بعد خمس وأربعين دقيقة يبطئ القطار عند منعطف ، فافتح الباب وارم بنفسك ، ارفع يديك إلى أعلى واسقط على قدميك ، سننتظرك هناك ومعنا عربة وحصان وبعد يومين تكون في فرنسا " .

من الغد بدأ نقلي إلى سجن المقاطعة وتولى لحسن الحظ هذه المهمة شرطي تجاوز الخمسين ، ولم يكن شديد النشاط ، فصعدنا إلى القطار وجلسنا في مقصورة وحدنا مثلما ينقل المساجين . حينما انطلق القطار سألني :

– أتتكلم الإنكليزية ؟

– قليلاً .

فقال وهو يلفظ الكلمات بوضوح :

– إذا كنت تريد أن تعترف بشيء فلا تتكلم مع أي كان ، ولكن مع رجل ثقة يهمه أمرك .. معي مثلاً .. وما عليك سوى أن تطلب " دلفين " احفظ هذا الاسم .

فأجبته بحركة من رأسي وطلبت منه الإذن بمراقبة المناظر من النافذة المفتوحة ، ولأنه يحاول التقرب مني فقد أذن لي ، وهبّ عليه الهواء البارد فابتعد إلى الزاوية الأخرى من المقصورة ، فانتهزت الفرصة لكي أمدّ يدي من النافذة وأفتح الباب وبقيت ممسكاً به .

كنت أحسب الدقائق في ذهني ، وبعد مدة سألته عن الوقت .. لقد مرت أربعون دقيقة .

وتتابعت الثواني ، وأطلقت القاطرة صفارها فكانت اللحظة الحاسمة .

دفعت الباب ودون تردد قفزت إلى الخارج لأبعد ما أستطيع وعيناي مغمضتان .

ولم أعرف ما حدث بعدئذٍ فقد استيقظت لأرى عربة يسوقها فلاح هرم وكلب أصفر بشع يلحس يدي .



قال صوت بجانبي : آه ظننتك ميتاً .

ونظرت إلى مصدر الصوت تحت الغطاء وإذا عينان سمراوان تبرقان ، عينا ماتيا .

قال الفلاح وهو يعود إلى مقعده :

– إذن كيف الحال ؟

تأملته فإذا هو بوب ، يا له من مهرج محترف .

كانت الصدمة قوية فأغمي علي ، ولكني والحمد لله لم أصب بأذى . سألت :

– أين كابي ؟

– كابي ! إنه يلحس يدك منذ نصف ساعة .

عند حلول الظلام أوقف بوب الحصان لينال قسطاً من الراحة ويأكل ، فانتهزت الفرصة وشكرته على مساعدته لي ، فقال وهو يصافحني :

– لا تهتم ، لكل امرئ دوره ، لقد ساعدتني أثناء السباق فساعدتك الآن ، ولكن هل تعرف وجهتنا الآن ؟ سوف تستقل سفينة أخي الذي يسافر كل أسبوع إلى فرنسا ليجلب البيض والزبدة ، وهو ينطلق فجراً ، وليس لدينا وقت طويل للوصول إلى المرفأ ، ولن يبحث عنك أحد في هذا المرفأ الصغير .

– ولكن الشرطي !

– لن يكون لديه وقت ، فالقطار لن يتوقف من أجله .. هيا اختبئ جيداً .

أخيراً أوقف بوب العربة وطلب منا الانتظار دون أن نصدر صوتاً ، ثم اختفى .. ومر الوقت بطيئاً ، وسمعنا أخيراً صوت أقدام على الطريق فقد عاد بوب ومعه شاب طويل يرتدي صداراً من الكتان المشمع وعلى رأسه قبعة صوف ، قال بوب :

– هذا أخي ، سيأخذكم إلى فرنسا ، الوداع يا أصدقائي سأعود في الحال ، وسوف نلتقي ذات يوم .

وتركنا بعد مصافحة حارة . بعد ساعتين كانت السفينة الصغيرة تغادر الميناء وتنـــزلق بسرعة على مياه بحر المانش .

الفصل الرابع والعشرون

البجعة

ها قد وصلنا إلى الرصيف ونحن بأمان في فرنسا وما نزال أغنياء من الغلة التي جمعناها من ساحة السباق وقد سلمها بوب إلى ماتيا .

قال لي ماتيا وهو فرح لأن قدميه تطآن اليابسة :

– والآن أين نمضي ؟ لا أفضل وجهة على سواها بشرط أن نتبع مجاري الأنهار .

– ولماذا مجاري الأنهار ؟

فقال ماتيا دون اهتمام :

– آه .. إنها فكرة خطرت لي ، إن صديقك آرتور لا يزال مريضاً ، ولعل السيدة ميليغان لا تزال على متن البجعة ولم تغادر فرنسا ، فإذا وجدنا " البجعة " وجدنا السيدة ميليغان .

– ولكن ليز وإيتانت وبنجامين وألكس؟

– سنراهم في طريقنا فأي نهر هو الأقرب إلينا ؟ نهر السين ؟ حسناً سنصعد في مجرى السين ونسأل عن مركب البجعة .

وشعرت بالخوف لأنه إذا كانت الشرطة البريطانية تبحث عني فسوف تبحث في باريس أولاً .

فقال ماتيا :

– سنحاول اجتناب الدخول إلى باريس فلا أريد رؤية غارفولي .

تجولنا في عدد من المدن الواقعة على نهر السين ولم نعثر على المركب .

بعد مدة صادفنا بحاراً ذكر لنا أنه رأى مركباً تنطبق عليه أوصاف البجعة يصعد نهر السين وذلك منذ شهرين على الأقل ، فعدنا إلى الصعود في نهر السين ووصلنا بلدة " مونترو " فذكر لنا أنه رؤي عند بلدة " بون " وعلى متنه سيدة إنكليزية وطفل ممدد على السرير .

فسرنا بأقصى سرعة ممكنة ، ولم نقدم إلا القليل من الاستعراضات في القرى .

كان مدخولنا ينقص طبعاً وما يزال معنا مبلغ جيد من الأربعين فرنكاً .

وصلنا إلى قرية " دروزي " حيث تسكن العمة كاترين ، فطرقنا الباب طرقاً شديداً .

ففتحت الباب امرأة لا نعرفها ويبدو عليها القلق لهذا الطرق المتواصل ، فقلت لها وأنا خجل :

– عذراً سيدتي ، فنحن نبحث عن مدام سوريو !

– آه .. زوجة البحار ؟ سافرت إلى مصر ..

وهتفنا بصوت واحد :

– إلى مصر ؟!

– نعم بعد موت زوجها .. فقد غرق .

– غرق زوجها ؟

– المسكين ، وبعد موته عرضوا عليها الذهاب إلى مصر للعناية بأطفال إحدى السيدات فقبلت ، إذ لا معيل لها .

وسألت بصوت مخنوق :

– وهل ذهبت ليز معها ؟

– آه ليز ؟ البنت الخرساء ؟ لا لم تذهب معها ، وهذا هو الأمر الذي سهّل لها السفر إلى مصر ، لقد توقّفت هنا منذ ستة أسابيع سيدة معها طفل مريض ووجدت أن الطفلة لطيفة مهذبة فاتفقت مع كاترين على أن تأخذها معها ووعدت بأن تشفيها من مرضها .

– ولكن قل لي ما اسمك ؟

– ريمي .

– آه .. ذكرت لي أنها ستبعث إليّ عنوانها ، ولم يصلني شيء .

فسألها ماتيا :

– وإلى أين اتجهوا ؟

– إلى سويسرا كما أعتقد .

فاندفعنا إليها وإذا هي خالية .

قال لنا رجل كلفته بمراقبة المركب إن المرأة الإنكليزية لن تعود إلا في الخريف القادم .

– لكن أين هي بحق الله ؟

– أظنها سافرت إلى " فيفي " في سويسرا ومعها أولادها ، وتبعها بعدئذ خدمها .

فمشينا أربعة أيام حتى تقطعت أحذيتنا ، وحين وصلنا " فيفي " لم نجدها قرية صغيرة ، وسألنا عنها في كل مكان ، فمن قائل إنه رآها وآخر إنه لا يعرفها ، وثالث يظن أنها لن تعود ..

وكان علينا أن نكسب لقمة العيش ، فعزفت على قيثارتي وعزف ماتيا على كمنجته ، فلم نربح سوى قروش معدودة ، وبلغ بي الحزن أقصاه ، فعزفت الأغنية الإيطالية ترويحاً عن نفسي ، ورفعت صوتي بالغناء فإذا بصوت نحيل يرافقني .

وهتف ماتيا :

– إنه صديقك أرتور .

ونظرت إلى مصدر الصوت فكان من سور حديقة متشابكة الأشجار . قفزنا إلى الداخل وأزحت بعض الأغصان وأنا أنادي :

– ليز .. ليز ..

ورأيتها تفتح فمها وتنطق بصوتها الأبح الرائع :

– ريمي .. أهذا أنت ؟

كانت ليز تتكلم .. لقد حدثت المعجزة وشفيت ليز .. وبعد أن هدأت نفسي سألتها :

– أين السيدة ميليغان يا ليز ؟

كانت تحرك شفتيها بحثاً عن الكلمات حين لمحت في أحد ممرات الحديقة السيدة ميليغان وآرتور تدفعه خادمة ووراءها جيمس ميليغان . فتراجعت مذعوراً وقلت لليز بصوت خفيف :

– لا تقولي لأحد إنك رأيتني ..

واختفيت داخل الأغصان المتشابكة .

قال لي ماتيا :

– إن جيمس ميليغان لا يعرفني ، اختبئ وسوف أرى السيدة ميليغان وهي تقرر ما علينا أن نفعله .

وهرول مبتعداً . بقيت في مختبئي وكابي بين قدمي حتى رأيت السيدة ميليغان تقترب مني ، أمسكت بيدها الممتدة إليّ وقبلتها فجذبتني إليها وقبلت جبهتي ثم حدقت في وجهي وهي تقول :

– لقد حكى لي صديقك ماتيا عن عائلة دريسكول ، وذلك المدعو جيمس ميليغان فأرجوك أن تروي لي الحكاية بالتفصيل . فأصغت إلي بكل جوارحها ثم قالت بعدئذٍ :

– إن ما قلته شديد الخطر ، عليك وعلى ولدي آرتور ، وبانتظار التأكد من بعض الأمور ، ستذهبان خلال ساعتين إلى فندق " الألب " وسيتولى شخص موثوق منه العناية بكما ، وهناك نلتقي جميعاً .

بعد ساعتين كنا في الفندق المذكور ، ولم يدهش صاحب الفندق لرؤية ملابس الموسيقيين الجوالين ولا الأشرطة الملونة ، بل أوصلنا إلى غرفتنا .

بعد خمسة أيام من الطعام الدسم وأطباق الحلوى اللذيذة اصطحبتنا إحدى الخادمات إلى السيدة ميليغان ودخلنا الفيلا ، فرأيت السيدة ميليغان وأرتور فوق سريره وليز .

قفزت ليز إلى عنقي ، ومدّ آرتور لي يده ، وعانقتني السيدة ميليغان وهي تقول :

– يا ولدي الحبيب ستنال أخيراً المنـــزلة التي تستأهلها ، أدخلوا جيمس ميليغان" !

فانفتح الباب وامتقع لوني لرؤية جيمس ميليغان بذاته يضحك عن أسنان الذئب ، ولكنه حين رآني زالت ضحكته وعلته الكآبة .

قالت السيدة ميليغان تخاطبه بصوت رزين :

– لقد دعوتك يا سيد ميليغان لكي أعرّفك بولدي البكر الذي وجدته أخيراً ، وأظنك تعرفه لأنك ذهبت إلى الشخص الذي سرقه لكي تطمئن على صحته .

فتلعثم السيد ميليغان :

– كيف هذا ؟

تابعت السيدة ميليغان :

– وهذا الرجل في السجن اليوم متهم بالسرقة ، وقد أدلى باعترافات مدونة بخط يده .. ولديّ شهود آخرون ووثائق كثيرة كالثياب التي احتفظت بها تلك المرأة التي تكفّلت بولدي .

قال هائجاً :

– سنرى كيف تفصل المحاكم في هذه القضية .

– افعل ما تقدر عليه ، لقد وجدت ولدي أخيراً !

خرج جيمس ميليغان مكشراً عن أنيابه وانفجرنا جميعاً بالبكاء .

الفصل الخامس والعشرون

مع العائلة

هل بقي شيء أقوله ؟ إني أكتب هذه السطور من حديقة ميليغان في إنكلترا ، وإن الموسيقي الجوال الذي جرّه وراءه فيتاليس على صوت المزمار في طرقات فرنسا ودروبها يسكن الآن قصراً تذكره كتب السياحة قائلة : " يستأهل الوقوف عنده " .

وبالطبع فقد تزوجتُ ليز ، وعما قريب سنعمّد ولدنا الصغير ماتيا ، وأما عرّابه فسوف يصل غداً ، إنه عازف الكمنجة الإيطالي الشهير تلميذ غارفولي ،وقد ألغى عدداً من حفلاته كي يتمكن من الحضور .. يا لبؤس ماتيا !

وأذيع عليكم سراً إذ أقول إن آرتور الذي شفي تماماً غارق في الحب إلى أذنيه . لكننا ننتظر أشخاصاً آخرين .

ستصل الأم باربرن من فرنسا لكي تقيم معنا وترعى ولدنا ، وكذلك الأب أكوين الذي خرج من السجن منذ وقت طويل ووجد بستاناً كبيراً قرب باريس ، ويصل بنجامين من منطقة الأنتي وهو الآن خبير زراعي شهير ، وسوف يأتي ألكس وإيتانت ويصل بوب كذلك من لندن ..

وباختصار سيجتمع الكل هنا بما فيهم كابي الهرم الكسول ، وهو على الرغم من الروماتيزم المصاب به ما يزال يقدّم تحيته بقائمته التي يرفعها على مستوى القلب .

لم يبق ممن أحببت سوى الأقرب إلى قلبي :

الشخص العزيز العظيم الذي لا يُنسى " كارلو بلزاني " أستاذي الشيخ فيتاليس الذي ضحى بنفسه لكي ينقذني ، ولكنه سيحيا في قلوبنا على الدوام .

الفهرس

1 – طفل بلا عائلة . 5

2 – فرقة السينيور فيتاليس . 17

3 – في الطريق . 28

4 – بداياتي . 33

5 – بدأت أتعلم القراءة . 42

6 – أمام العدالة . 46

7 – في المركب . 52

8 – الولد اللقيط . 64

9 – ثلوج وذئاب . 67

10 – السيد " طيب القلب " 73

11 – معلم شارع لورسين . 80

12 – مقالع الحجارة في جنتلي . 88

13 – ليز الصغيرة . 94

14 – إلى الأمام . 104

15 – حلاق بلدة ماند . 114

16 – بقرة الأمير . 120

17 – الأمّ باربون . 127
18 – العائلة القديمة والعائلة الجديدة . 134
19 – في باريس . 138
20 – أبحاث . 146
21 – لندن . 150
22 – عائلة دريسكول . 156
23 – الهرب . 171
24 – البجعة . 178
25 – مع العائلة . 185

ريمي الصغير

هكتور مالوت

عاش الفتى (ريمي) بلا عائلة ، حتى اشتراه (فيتاليس) الموسيقي واصطحبه معه في رحلاته.

وبعد وفاة معلمه سعى (ريمي) إلى البحث عن عائلته من مدينة إلى أخرى ، يصحبه قرد صغير وكلبه المدرب (كابري).

فهل يجد عائلته المفقودة ؟..

1 ـ الذئب الأبيض
2 ـ توم سوير
3 ـ الهندي الشجاع
4 ـ مذكرات حمار
5 ـ نداء الغابة
6 ـ روبنسون كروزو
7 ـ هايدي
8 ـ حكايات أندرسون
9 ـ عشرون ألف فرسخ تحت البحار
10ـ ريمي الصغير
11ـ نساء صغيرات
12ـ جزيرة الكنز
13ـ حول العالم في ثمانين يوماً
14ـ كوخ العم توم
15ـ شرلوك هولمز
16ـ مغامرات الكابتن فراكاس
17ـ حرب النار
18ـ الحوت الأبيض
19ـ كتاب الأدغال
20ـ أحدب نوتردام
21ـ اللورد الصغير
22ـ الشيطان الصغير
23ـ أحزان صوفي
24ـ فتيات مثاليات

تصميم الغلاف : هيثم فرحان

دار ربيع للنشر
RABIE PUBLISHING HOUSE